وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

منطق الطير: المنطق: الكلام. (الأقرب)

التفسير: بعد قصة موسى تحدث الله تعالى هنا عن داود وسليمان، إذ يُعتبر داود ابنًا خاصًا لموسى - عليهم السلام.

ثم ذكر الله ﷻ قول داود وسليمان وهو: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.. والمعنى أنه جعلهم حاكمين على المؤمنين من خلال الخلافة روحانيًّا وماديًّا.

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾.. أي عندما تُوفّي داود خلَفه سليمان عليهما السلام.

وأما قول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فاعلم أن ضمير الجمع للمتكلم هنا عائد إلى سليمان وحده دون داود - عليهما السلام - إذ الكلام بصيغة الجمع هو من أساليب الملوك للدلالة على قوهم وعظمتهم.

وقد قال المفسرون عن قول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أنه كان يفهم لغة الطيور من حمام وسمان وحجل وعصافير وغيرها كما يفهم الإنسان كلام إنسان آخر. وقالوا أن سليمان عليه السلام رأى ذات يوم بلبلاً على غصن يغرد ويحرك رأسه وذنبه، فقال لمن حوله: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال إنه يقول: أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العَفاء. ثم ناحت حمامة، فقال سليمان إنها تقول: ليت هذه الخلائق لم تُخلق.

ويقول المفسرون أيضًا أن سليمان عليه السلام كان يقول إن الحمام يقول: لِدُوا للموت وابنُوا للخراب، ويقول الطاووس: مهما تفعل تُجزَ به. ويقول الهدهد: من يرحم الناس يرحمه الله تعالى. وتقول الأبابيل من العصافير: قدِّموا الأعمال الصالحة تجدوها عند الله. وتقول الحمامة: سبحان ربي الأعلى ملْءَ سمائه وأرضه. وتقول القطة: من يسكت يسلم. وتقول الببغاء: ويل لمن الدنيا همُّه. ويقول الديك: أيها الغافل اذكر الله. ويقول الضفدع: سبحان ربي القدوس. ويقول العصفور: استغفروا أيها الآثمون. وتقول الحدأة: كل شيء هالك إلا وجهه. (القرطبي)

إذًا، فقد بذل المفسرون جهدهم ليثبتوا أن سليمان عليه السلام كان يفهم منطق الطير جيدًا، وقد ضموا الضفدع إلى الطيور أثناء محاولتهم هذه. والحق أنهم قد وقعوا في هذا الخطأ لعدم فهمهم هذا الكلام الذي هو من قبيل الاستعارة والمجاز، مع أنه يماثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾(البقرة:١٨٨).. أي أن وقت السحور في ليالي رمضان ينتهي عندما يتضح الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ولكن بعض الفلاحين البسطاء من بلادنا "البنجاب" يضعون عندهم في ليالي رمضان خيطًا أبيض وخيطًا أسود، وبما أن الخيط لا يُرى إلا في الضوء الكافي، فلا يبرحون يأكلون بعد طلوع الفجر أيضًا في انتظار أن يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود. كذلك حال هؤلاء القوم الذين لا يفهمون التشبيه والاستعارة، فإذا قرأوا في القرآن أن لله يدًا يقولون – والعياذ بالله – إن يده سبحانه وتعالى أيضًا من اللحم والدم مثل أيدينا. وإذا قيل لهم إن المراد من يد الله سبحانه وتعالى قوته وقدرته قالوا لا يحق لكم التأويل فإن الله سبحانه وتعالى نفسه قال إن له يدًا. وإذا قرأوا قول الله سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(الأعراف:٥٥) فلا يبرحون حتى يقولوا أن الله سبحانه وتعالى جالس على عرش من الرخام. وذلك برغم أن التشبيه أو الاستعارة موجود في جميع لغات العالم. فيُقال عندنا مثلاً ما يعني حرفيًا: عينُه جلستْ، ولكنهم لا يفهمون منه أن للعين أرجلاً وأنها تجلس على كرسي أو سرير، بل كل واحد يفهم منه أن عينه فُقئت وضاعت. وهناك استعارات كثيرة من هذا القبيل في لغتنا ولا يعترض عليها أحد بل يعتبرونها

من كمال اللغة ومحاسنها. وكما تكثر الاستعارة والمجاز في كل لغة من لغات العالم كذلك ترد الاستعارات في الصحف السماوية أيضًا، ولكن الذين لا يفهمون الحقيقة يتمسكون بظاهر الكلمات فيَضلّون ويُضلّون.

وهذا هو حال قول سليمان الطَّيِّلاً: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾، فلما رأى المفسرون كلمة ﴿الطير﴾ هنا ظنوا أن من خصوصيات سليمان أن الله ﷻ علّمه لغة السمان والحجل وغيرها من الطيور.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: ما الفائدة من تعليم منطق الطيور؟ فهل تعلَم الطيور معارف وعلومًا عظيمة حتى نقول أن سليمان الطَّيِّلاً عُلّم منطقها لكي لا يظل محرومًا من معارفها وعلومها. كلا، بل الواقع أن الطيور لا تملك من العقل ما يملكه أغبى وأجهل إنسان في العالم، فماذا عسى أن يتعلم منها نبي الله سليمان الطَّيِّلاً؟ وإذا كانت الطيور تبلغ من العقل والذكاء بحيث إن نبيًا عظيمًا كسليمان كان بحاجة ليتعلم منها العلوم والمعارف فلماذا أحلّ الشرع ذبحها؟ فتحريم ذبح الإنسان وإباحة ذبح الطيور والحيوانات يشكّل دليلاً بيّنًا على أن الله تعالى قد جعل هذا الفرق بسبب فارق العقل إذ لا يبلغ دماغ الطيور والحيوانات نصف الدماغ الإنساني. فلأي حكمة عُلّم سليمان منطق الطير إذًا؟

ثم إن المفسرين لم يكتفوا بقولهم أن سليمان الطَّيِّلاً عُلّم منطق الطيور كلها فحسب، بل قالوا أن طير الهدهد قد بلغ من الذكاء والفطنة أنه فهم كلام ملكة قوم "سبأ" وكلام حاشيتها وكلام سليمان الطَّيِّلاً، بينما لم يستطع أحد فهم كلام الهدهد إلا سليمان (الرازي). وهذا يعني أن هذا الطير كان أكثر ذكاءً من جميع الأمراء والوزراء والعلماء والحكماء الذين كانوا في بلاط سليمان، إذ كان يفهم كلامهم ولكنهم كانوا لا يفهمون كلامه، وكان هناك شخص واحد يفهم كلامه وهو سليمان، وكأن سليمان وحده كان يساوي طير الهدهد هذا عقلاً وذكاءً. إنها فكرة لا يرضى بها أي إنسان عاقل، لأن التسليم بها يعني أن الطيور أفضل من الإنسان فلا يجوز ذبحها، بل يجب ذبح الإنسان مكانها لأنه أقل منها عقلاً – والعياذ بالله. فثبت أن هذه فكرة فوضوية لا يمكن أن يقبلها كل ذي عقل سليم.

الحق أن قول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ هو من قبيل الاستعارة والمجاز كما بينتُ من قبل، ولكن هؤلاء القوم لم يفهموه فوقعوا في نقاش لا طائل وراءه. الواقع أن الطير في العربية هو كل ما يطير، ويُطلق استعارةً على عباد الله المختارين المقربين الذين يحلّقون عاليًا في أجواء السماء الروحانية. وهناك إلهام باللغة الأردية تلقاه سيدنا المسيح الموعود عليه السلام يسلط الضوء على معنى الطير وهو:

"ہزاروں آدمی تیرے پروں کے نیچے ہیں"

(تذكرة (أردو) ص ٧٠٣، تاريخ الإلهام: ٩ مارس ١٩٠٧)

أي أن آلاف الناس تحت أجنحتك.

ومن البديهي أن الأجنحة تكون للطيور فقط، والطيور هي التي تجلس تحت أجنحة الطير. إذًا، فإن الله تعالى قد سمى المسيح الموعود عليه السلام في هذا الوحي طيرًا وأخبره أن الذين يستفيدون من صحبته هم أيضًا طيور العالم الروحاني. فهذا الوحي قد شرح هذه الآية القرآنية وبين أن الطير لا يعني هنا طيورًا مادية، بل يعني عباد الله الذين يطيرون إليه سبحانه وتعالى. وسبب إطلاق ﴿الطير﴾ عليهم استعارة هو أن الطيور تطير في جو السماء، والعلوم الروحانية أيضًا تنــزل من السماء، ومن الواضح أن الشيء الذي ينــزل من فوق سيتلقاه أوّلاً مَن يطير إلى فوق؛ فسُمي عباد الله الذين يطيرون في أجواء العالم الروحاني ﴿طيرًا﴾ لأنهم يتلقون علوم السماء وأسرار الغيب النازلة من عند الله سبحانه وتعالى عبر الوحي والرؤى والكشوف، وهم الذين يُنعم الله سبحانه وتعالى عليهم بفيوضه قبل غيرهم، ثم يتمتع بها الذين هم في صحبتهم.. كُلٌّ بقدر إخلاصه ودرجته.

إذًا، فالمراد من قول سليمان عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أنه قد عُلِّمَ اللغة التي يُعلَّمها الذين يطيرون في سماء الروحانية عاليًا، أي أنه قد أُعطي المعارف والحقائق التي تُعطى للأنبياء.

وقد أكد القرآن الكريم هذا الأمر لأن اليهود والنصارى لا يعتبرون سليمان عليه السلام نبيًا وإنما يعدّونه مَلكًا دنيويًا فقط، ومن أجل ذلك تجد الكتاب المقدس لا يذكره أبدًا كنبي بل يعتبره أحد الفلاسفة والعلماء فحسب، حيث ورد فيها:

"وأعطى الله سليمانَ حكمةً وفهمًا كثيرًا جدًا ورحبةَ قلبٍ كالرمل الذي على شاطئ البحر. وفاقت حكمةُ سليمان حكمةَ جميع بني المشرق وكلَّ حكمةِ مصر." (الملوك الأول ٤: ٢٩-٣٠)

وكذلك ورد فيها عن سليمان عليه السلام:

"وتكلَّمَ بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفًا وخمسًا. وتكلَّمَ عن الأشجار من الأَرْز الذي في لبنان إلى الزُوْفَا النابت في الحائط. وتكلّمَ عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك. وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمةَ سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته." (المرجع السابق: ٣٢-٣٤)

وليس هذا فحسب بل إن الكتاب المقدس يتهم سليمان عليه السلام فيقول:

"وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْنَ قلبه وراءَ آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه." (الملوك الأول ١١: ٤)

إذًا، فإن الله تعالى قد فنّد بهذه الآية القرآنية موقفَ اليهود والنصارى من سليمان عليه السلام، وبيّن أنه كان نبيًا وأن الله تعالى قد أعطاه نفس العلوم والمعارف التي قد أعطاها لعباده المختارين الذين يطيرون إليه ويتبوأون من قربه درجة عالية.

ثم يقول سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾. واعلم أن هذا لا يعني أنه أُوتي كل شيء في العالم، بل المراد أن الله أعطاه كل ما كان بحاجة إليه؛ ذلك أن القرآن الكريم قد نقل في هذه السورة قول الهدهد عن ملكة "سبأ" أيضًا: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾(الآية:٢٤).. مع أنها لم تكن تحكم إلا على منطقة صغيرة جدًا. فلو كان المراد من قول سليمان أنه قد أُعطي كل شيء في العالم لكان معنى ذلك أنه أُعطي ملك ملكة "سبأ" وعرشها أيضًا، ولكان المراد من قول الهدهد أن ملكة "سبأ" كانت تحكم على سليمان وتملك جنوده أيضًا؛ مع أن كلا الأمرين باطل بالبداهة.

الحق أن كلمة ﴿كل﴾ في العربية لا تعني بالضرورة جميع أفراد جنس ما، بل يُراد بها فقط كل ما هو ضروري. فمثلاً يقول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٤٥).. أي أن الذين خلوا من قبلكم لما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب الرقي بكل أنواعها، ثم أنـــزلنا عليهم العذاب. وهنا أيضًا لا يُراد من لفظ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أهم أُعطوا نعم الدنيا كلها، بل المراد أهم أُعطوا نصيبًا من النعم العظيمة المتوافرة في عصرهم وبلادهم.

كذلك يقول الله تعالى عن أهل مكة: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾(القصص:٥٨). وليس المراد من كلمة ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثمرات العالم كلها، بل المراد كثيرًا من الثمرات التي هي ضرورية لأهل مكة.

ثم يقول الله تعالى للنحل: ﴿كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾(النحل:٧٠)، مع أنها لا تأكل من كافة ثمرات العالم، بل من بعضها فقط.

إذًا، فليس المراد من قول سليمان الطَّيْكِلاً: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أنه أُعطي كل شيء في الدنيا، بل أُعطي كل ما كان بحاجة إليه، أي أن الله تعالى سدّ له الطَّيْكِلاً كل حاجة كما هيأ لملكة سبأ كل ما كانت بحاجة إليه في زمنها، ولذلك يقول سليمان الطَّيْكِلاً بعد هذه الدعوى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.. أي أن حاجات الإنسان لا تُسد إلا بفضل خاص من عند الله تعالى.

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

يُوزَعون: وزَعه: كَفَّه ومنَعه وحبَسه. ووزَع الجيشَ: حبَس أوّلَهم على آخرهم، ويُقال: رأيتُه يزَعُ الجيشَ: يرتّبهم ويسوّيهم ويصُفّهم للحرب. (الأقرب)

التفسير: يبدو من هذه الآية أن سليمان عليه السلام كان يتأهب عندئذ لمحاربة بعض البلاد، فجُمع له جنوده كلهم بمن فيهم جند الجن وجند الإنس وجند الطيور.

إن المفسرين بمجرد أن يقرأوا لفظ "الجن" هنا يظنون أن الجن كائنات غير مرئية كانت تحت إمرة سليمان عليه السلام. مع أنهم لو تدبروا القرآن الكريم لم يلجأوا إلى هذا التأويل الذي لا طائل منه.

ولفهم حقيقة الجن علينا أن نرى أوّلاً وقبل كل شيء ما إذا كان القرآن يذكر أن الجن كانوا يحضرون إلى سليمان فقط، أم أنه ذكر أنهم حضروا إلى غيره من الأنبياء الآخرين أيضًا. وعندما نفحص القرآن نقرأ فيه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(الأحقاف:٣٠-٣٢).. أي اذكُرْ، يا محمد، حين أتيناك بنفرٍ من الجن راغبين في سماع القرآن الكريم، فلما حضروا مجلسك قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنسمع صوته جيدًا. فلما انتهت تلاوة القرآن الكريم رجعوا إلى قومهم منذرين وقالوا: يا قومنا إنّا سمعنا تلاوة كتاب أُنـزل من بعد موسى، وهو يصدق كل الصحف السابقة له، ويدعو إلى الحق ويهدي إلى طريق مستقيم. يا قومَنا، لَبُّوا نداء منادي الله تعالى وآمِنوا به، يغفر لكم الله ذنوبكم وينجكم من عذاب أليم.

لقد ثبت من هنا أن الجن قد آمنوا بما نـزل على موسى عليه السلام من التوراة وما نـزل على النبي ﷺ. وعليه فلم يكن سليمان عليه السلام هو النبي الوحيد الذي آمن به الجن، بل قد آمنوا بموسى عليه السلام وآمنوا بالنبي ﷺ بحسب القرآن الكريم. ولكن المؤسف أن المفسرين يذكرون قصصًا غريبة عن الجن الذين كانوا تحت قبضة سليمان عليه السلام. فيقولون مثلاً أنه كان يجلس على بساط، فكان الجن يمسكون بأطرافه ويطيرون به إلى السماوات. أما الجن الذين آمنوا بالنبي ﷺ في زمنه فلا

يذكر المفسرون – ولو برواية ضعيفة جدًا – أنهم قدموا مثل هذه المساعدة له ﷺ أيضًا، مع أن النبي ﷺ وأصحابه قد تكبدوا عناء السفر مرارًا إذ لم يجدوا ما يركبون، ففي مرات كثيرة أتوه يبكون ويسألونه أن يعطيهم ما يركبونه ليخرجوا معه، ولكنه لم يجد لهم ما يركبون. فخرجوا معه ﷺ مرات كثيرة حُفاةً في أسفار طويلة شاقة (التوبة:٩٢، والبخاري: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع)، ولكن هؤلاء الجن لم تلن قلوبهم القاسية رغم رؤية ما تعرض له النبي ﷺ وصحابته من آلام. كانوا يحملون سليمان عليه السلام وجنوده من مكان إلى مكان، ولكن الغريب أنهم لم يحملوا ولو عشرين من فقراء المهاجرين إلى ساحة القتال!

يقول البعض أن الجن كائنات من غير جنس الإنسان، وقد آمن هؤلاء بنبينا وبموسى وسليمان – عليهم السلام (الدر المنثور). ولكن علينا أن نرى ما إذا كان القرآن يصدق هذا المعنى أم لا؟ إذا كان الكلام عن الجن استعارة فلا بد أن القرآن الكريم قد بيّن مراده منها، وإذا لم نعتبر هذا الكلام من قبيل الاستعارة وقع التناقض بين آيتين من القرآن الكريم وحصل فيه الاختلاف. فعلينا أن نرى ما إذا كان اعتبار هذا الكلام استعارة يؤدي إلى الاختلاف في القرآن الكريم أم العكس هو الذي يؤدي إلى الاختلاف فيه؟

وليكن معلومًا أن الذين لا يعتبرون هذه الآية استعارة ويقولون أن الجن كائنات غير مرئية مثل الشيطان، وكما أن الشيطان كائن منفصل عن الإنس فالجن أيضًا كائنات غير الإنس (الرازي).

والجواب أن هناك إجماعًا لدى المفسرين على أن الشياطين المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ هم اليهود ورؤساؤهم (القرطبي)؛ فإذا كان الإنس يمكن أن يسمَّوا شياطين فلماذا لا يسمَّون جنًّا أيضًا؟

كذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(الأنعام:١١٣).. أي قد جعلنا لكل نبي أعداء من شياطين الإنس ومن شياطين الجن الذين يحرّضون الناس على النبي وجماعته. لقد صرح الله هنا أن الشياطين يكونون من الناس أيضًا. فإذا أمكن أن

يكون هناك شياطين الإنس فكيف لا يكون هناك جنّ الإنس؟ بمعنى أنه كما يمكن أن يولد من الناس من يسمون شياطين فكيف لا يمكن أن لا يكون من الناس من يسمّون جنًّا؟

لقد ثبت مما سبق بيانه أن الجن لم يكونوا في قبضة سليمان فحسب بل لقد آمنوا بموسى وبنبيّنا ﷺ أيضًا.

والآن نرى إلى من بُعث النبي ﷺ؟

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾(النساء:٨٠). فلو كانت كائنات خفية تسمى جنًّا قد آمنت بالنبي ﷺ فكان من المفروض أن يُقال: "وأرسلناك للناس والجن رسولاً" بدلاً من أن يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾. وإذا كان النبي ﷺ مبعوثًا إلى الناس فثبت أن الجن الذين قِيل هنا إنهم آمنوا به ﷺ إنما كانوا من جن الإنس، وليس كائنات غريبة خفية يتصورها الناس.

كذلك ورد في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: أُعطيتُ خمسَ خصال لم يُعْطَها نبي قبلي، وإحداهن: "كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة." (البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جُعلتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا)

لقد صرح النبي ﷺ هنا بشكل حاسم أنه لم يوجد بين الأنبياء السابقين نبي واحد بُعث إلى أحد سوى قومه. ولكن هؤلاء المفسرين يقولون أن سليمان عليه السلام قد بُعث إلى الجن والطيور والنمل أيضًا. ولو كان هذا صحيحًا لصار سليمان أفضل من النبي ﷺ - والعياذ بالله - إذ كان مبعوثًا إلى الإنس وغيرهم أيضًا، بينما كان نبينا ﷺ مبعوثًا إلى الإنس فقط.

ثم إذا كان هؤلاء الجن من غير الإنس فكيف قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ﴾(الأنعام:١٢٩).

لقد تعبنا بحثًا عن هؤلاء الجن الذين يتحدث عنهم الناس ولا نجدهم، ومع ذلك يعلن القرآن الكريم هنا أن الجن قد جعلوا معظم الناس في قبضتهم. الواقع أن المؤمنين بمثل هؤلاء الجن يرهقون أنفسهم بكثرة الاعتكافات والتأملات والأوراد،

فيصابون في عقلهم حتى يتخيلون أصواتًا، فيقولون: ها قد جاءنا الجن. والواقع أنه لا يأتيهم أي من الجن، وإنما يفقدون حواسهم ويصابون بنوع من الجنون. أما الإنسان الذي يكون عقله متوازنًا فلا يأتيه الجن أبدًا.

على أية حال، سيقول الله تعالى للجن يوم الحشر أنهم جعلوا كثيرًا من الناس تحت قبضتهم واستغلوهم كثيرًا، ومن ناحية أخرى نقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾(الأنعام:١٢٩).. أي سيقول أصدقاؤهم من الناس لربهم ربنا انتفعَ بعضنا ببعض. ولكن الأمر الواقع أنك إذا سألتَ أهل قريتك ما إذا كان خمسون بالمئة منهم جلبوا أي نفع من الجن، فلن تجد ولا واحدًا منهم يقول إنه قد انتفع من الجن وأنه على صلة بهم. فثبت أنه ليس المراد من الجن هنا أي كائنات غريبة دون الإنسان، بل المراد من الجن بعض من الناس أنفسهم. وبالفعل ترى بين جنّ الإنس صداقات كثيرة.

ثم هناك دليل أكبر مما سبق وهو قول الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾(الأنعام:١٣١). فترى أن الله تعالى يقول من جهة أن بعض الجن قد آمنوا بمحمد ﷺ، ويعلن هنا من جهة أخرى أن رسولنا هذا أيضًا منهم، فثبت من ذلك جليًا أن أولئك الجن كانوا من الناس، و لم يكونوا كائنات غريبة غير إنسانية.

وليس هذا فحسب، بل يقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾. مما يعني أن موسى وسليمان ونبينا - عليهم السلام - كانوا يحذّرون الجن أيضًا، ويذكّرونهم بلقاء الله ويوم الآخرة. فثبت من ذلك بوضوح أن هؤلاء الجن كانوا جن الإنس لا كائنات غريبة، فكما يكون ثمة شياطين الإنس كذلك يكون هناك جن الإنس.

واسمَعْ الآن دليلاً آخر واضحًا جدًا، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾(الفتح:٩-١٠).. أي لقد أرسلنا هذا الرسول إليكم لتؤمنوا به وتنصروه وتعزّروه. فما دام الجن قد آمنوا بالرسول ﷺ فهل بوسع أحد من الشيوخ أن يُثبِت لنا أن هؤلاء الجن المؤمنين قد

نصروا النبي ﷺ ولو في موطن واحد. إن الجن، بحسب زعمهم، يجلبون لشيخ بسيط منهم عناقيد العنب، ولكنهم لم يُحضروا للنبي ﷺ كسرة خبز، مع أنه ﷺ كان يبيت جائعًا في أحيان كثيرة. فذات مرة وجد الصحابة أثر الضعف على وجه نبينا ﷺ فعلموا أنه جائع جدًا، فذهب أحدهم وذبح ماعزًا وأطعمه وأصحابه (البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق)، ولكن هؤلاء الجن لم ينصروه في هذه الشدائد والمحن ولو مرة واحدة. وعندي أن هؤلاء الجن كانوا عديمي الحياء جدًا، إذ يُحضرون للمشايخ أطيب الفواكه من تفاح وعنب وما إلى ذلك، و لم يحضروا للنبي ﷺ الذي آمنوا به حتى خبز شعير! فكيف عُدّوا من المؤمنين به يا ترى؟

فمن الخطأ تمامًا الظن أن هؤلاء الجن كائنات غير مرئية غريبة عن الإنسان. كلا بل إن الجن الذين آمنوا بالنبي ﷺ كانوا أيضًا أُناسًا، وقد نصروه كما نصره غيرهم من الناس. أما إذا اعتبرناهم كائنات غير إنسانية فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا والذي يجب أن يجيب عليه القائلون بالجن هو: لماذا لم ينصر هؤلاء الجن رسولنا ﷺ رغم إيمانهم به، ورغم أن الله تعالى أمر بنصرته ﷺ؟

ثم هناك دليل أقوى مما سبق، وهو قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٣).. أي لقد عرضنا أمانة الشريعة والوحي على مخلوقات السماء وقلنا لهم: هل فيكم من يؤمن ويعمل به؟ فقالت مخلوقات السماء كلها بصوت واحد: لا نستطيع حملها. ثم عرضناها على مخلوقات الأرض وقلنا: تعالوا واحملوا هذا العبء ولكنهم أيضًا رفضوا وقالوا: لا نستطيع حمله. فعرضنا هذه الأمانة على الجبال فرفضتها وخافت من حملها - مع أن الشائع أن الجن يسكنون في الجبال - ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾.. أي أن الإنسان تقدم وقال: أعطني يا رب أمانة شريعتك، فأنا أحملها وأعمل بها. ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾.. أي أن الإنسان كان شديد الظلم لنفسه، إذ لم يُبال في نشوة حبنا وعشقنا بثقل هذه الأمانة، بل حملها بشوق ولهفة غير مكترث للعواقب.

فترى هنا أن الله تعالى يقول هنا صراحة أن الإنسان وحده حمَل الشريعة، وليس هناك مِن أحد سواه مكلَّف بالشرع. وما دام الإنسان وحده قد حُمّل عبْء الشرع، فكيف تقدم الجن - وهم كائنات غير إنسانية حسب زعمهم - فآمنوا بالرسول ﷺ والقرآن الكريم؟ لو سلّمنا بكون الجن كائنات غير إنسانية لأصبح كلام الله لغوًا باطلاً، لأنه تعالى يصرح أن جميع المخلوقات رفضت العمل بالشرع ما عدا الإنسان. وحيث إن القرآن الكريم يعلن أن الجن آمنوا بالرسول ﷺ فتبين أن هؤلاء الجن كانوا أناسًا، و لم يكونوا كائنات غير إنسانية.

فالمراد من الجن هنا أيضًا جن الإنس وليس كائنات سوى الإنسان. كما أنني لا أؤمن بالجن الذين يأتون الناس ويتلبسونهم.

أتذكر أن أحد الإخوة كتَب مرة إلى المسيح الموعود عليه السلام بأن الجن يأتون إلى أخته ويتلبسونها، وأنهم مستعدّون للإيمان بحضرته عليه السلام. فكتب له المسيح الموعود عليه السلام في الجواب أن يُبلغ رسالته لهؤلاء الجن كالآتي: ما الفائدة من مضايقة امرأة مسكينة؟ إذا كانوا يريدون مضايقة أحد فليذهبوا بالحريّ إلى الشيخ "محمد حسين البطالوي" أو الشيخ "ثناء الله الأمرتسري"* ويضايقوهما.

إذًا، فليس هناك شيء من قبيل أولئك الجن الذين يؤمن بهم الناس عادة. لا شك أن بعض الناس من ذوي الثقافة الإنجليزية لا يؤمنون بالجن، ولكن المؤمن لا ينظر إلى ما يمليه عليه العقل بل ينظر إلى ما يقوله القرآن الكريم. إذا كان القرآن يقول بوجود الجن فنقول: آمنا وصدقنا، وإذا ثبت من القرآن الكريم أنه ليس ثمة مخلوق اسمه الجن سوى الناس فلا بد أن نؤمن بما يقول القرآن الكريم.

الأمر الواقع أن فئة من الناس يكونون في غاية الإباء والتمرد فلا ينقادون لأحد، ولكنهم عندما يأتون الأنبياءَ يتغير حالهم رأسًا على عقب فجأة. وخير مثال على ذلك هو عمر رضي الله عنه، فكان في البداية لا يتحمل سماع كلمة عن الإسلام حتى

* كان هذان الشيخان من أشد الناس معارضةً للمسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

استشاط غضبًا ذات مرة، فامتشق حسامه وخرج بنية قتل النبي ﷺ. ولكنه لما أتاه أخذ يرتعد هيبةً له ﷺ. (السيرة الحلبية: المجلد الثاني، باب الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة)

فثبت من هنا أن هناك أناسًا من ذوي الطبائع النارية، ولكنهم عندما يأتون الأنبياءَ تخمد نارهم وتهدأ حدّتهم، وهؤلاء أيضًا يسمَّون في اللغة العربية جنًّا.

كما يراد بالجن عِليةُ القوم الذين يقيمون في القصور وراء حراسة شديدة فلا يصل أحد إلى أبوابهم بسهولة، فقد ورد في القواميس: جِنُّ الناس: معظمهم.

وكان من عادة الملوك العظام في القديم أن يقوموا بتعبئة أناس من قبائل عريقة ليكونوا من حرسهم الخاص ويحاربوا معهم في مواطن صعبة. فمثلاً كان عند الملك الألماني "ولهيلم" فرقة من الحرس الخاص. وكانت عند نابليون أيضًا فرقة خاصة كهذه. وكان عند الملك المغولي بالهند "أكبر" كتيبة خاصة من سادات "الباهرة"، وعندما أغار "أكبر" على قلعة "شتور" لم يستطع فتحها في البداية، فأمر هذه الكتيبة بشن الهجوم، فظلوا يُقطَعون بسيوف الأعداء واحدًا تلو الآخر إلى أن تمكنوا من إحداث ثغرة في جدار القلعة. وكان عند الملك "جنكيز خان" كتيبة خاصة قوامها رجال من قبيلة معينة (تارتاريوں كى يلغار (أردو) ص ٧٠، عام ١٢٠٦م)، فكان يكرمهم إكرامًا خاصًا وكان يخصّ قادتها بمكان الصدارة في بلاطه. وهناك قصة غريبة عن الفرقة الخاصة التي كانت تقوم بحراسة نابليون، وهي أن نابليون عندما لقي الهزيمة في موقعة "ووترلو" لم تنسحب كتيبته هذه عن ساحة القتال. كانت جيوش اللورد "ويلينغتون" يمطرونهم بالقنابل، ولكنهم كانوا يموتون الواحد تلو الآخر بدون أن يتركوا مكانهم. وكان نابليون قد بعث أحد قادته في مهمة، فمرّ عند عودته بقائد تلك الكتيبة واسمه الجنرال "ني"، وقال له: لقد نفذ عتادنا والعدو يتقدم، وأنت لا تزال واقفًا هنا، تعال ننسحب لننقذ الملك ونجمع شملنا لنعيد الكَرّة على الأعداء ثانية. فنظر إليه الجنرال "نِي" مستغربًا وقال بمنتهى البساطة: ولكن ماذا أفعل، فإن نابليون لم يعلّمني الانسحاب!

إذًا، فكلمة الجن في قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قد أُطلقت على فرقة خاصة لسليمان ؑ، إذ كان رجالها

من أسر عريقة، وكانوا معتادين على الإقامة في القصور وراء حراسة مشددة، وبالتالي استحقوا أن يُسمَّوا جنًّا أي الذين لا يراهم الناس عادة كونهم يعيشون بعيدًا عن أنظار القوم. فقد ورد في القاموس أن الجن يُطلق على "كل ما استتر عن الحواس" (الأقرب).. أي هم القوم الذين لا تسمع آذان الناس أصواتهم ولا ترى عيونهم أشخاصهم وكأنهم يعيشون منعزلين عن العالم، وبتعبير آخر، هم عِلية القوم وأمراؤهم؛ وقد ورد هذا المعنى أيضًا في القواميس بكل وضوح.

إذًا، كان قوام جنود سليمان عليه السلام فرقًا ثلاثًا: فرقة الحرس الخاص من عِلية القوم، وفرقة عامة الناس، وفرقة الرجال الروحانيين. وكان عليه السلام يصفّ كل فرقة على حدة، كما يقال أن الملك "تيمورلنك" كان يأمر كل فرقة من جنوده أن تصطف منفصلة عن غيرها، وكان يجعل فرقة المشايخ في مؤخرة الجيش وكان يقول: إن هؤلاء سيهربون قبل غيرهم من ساحة القتال فالأفضل أن يكونوا في مؤخرة الجيش (أمير تيمور (أردو) تعليقات: ص ٣٤٠). وإننا لا نستطيع أن نقول أن فرقة العلماء في جيش سليمان عليه السلام كانوا كمثل فرقة المشايخ في جيش تيمورلنك، إلا أننا نستطيع أن نقول بكل جزم إن العلماء في عهد الرسول ﷺ لم يكونوا هكذا. فقد روى علي رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كان أشجع الصحابة، وعندما أُعدّتْ عريشة للنبي ﷺ يوم بدر وتساءل القوم: من الذي يقوم على حراسة النبي ﷺ في هذا الوقت الحرج، امتشق أبو بكر رضي الله عنه سيفه وقال: أنا سأقوم بهذا الواجب بإذن الله. (تاريخ الخلفاء للسيوطي، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فصل في شجاعته)

كذلك ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال مرة: "أنا مدينة العِلم وعليٌّ بابُها". (الجامع الصغير، المجلد الثاني ص ١٦١، رقم الحديث ٢٧٠٥)

فالنبي ﷺ قد عدَّ عليًا رضي الله عنه من العلماء، لكن في غزوة خيبر عندما كان المسلمون في موقف حرج جدًا ناول النبي ﷺ عليًا الراية (الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب علي رضي الله عنه)، مما يدل أن العلماء في عهده ﷺ لم يكونوا جبناء بل كانوا أشجع الشجعان. بيد أن الشعراء يكونون ضعيفي القلب، حيث ورد عن حسان بن ثابت أنه كان ضعيف القلب. (البداية والنهاية، غزوة الخندق)

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ
ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ ١٩ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ
أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ
صَـٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ٢٠

شرح الكلمات:

لا يَحطِمنّكم: حطَمه: كسَره. (الأقرب)

أَوزِعْني: أوزَعَ الله فلانًا: أَلْهَمَه الشكرَ. (المفردات)

التفسير: إن المفسرين - كما بالغوا في تفسيرهم عن الجن والطير- قد بالغوا أيضًا حول وادي النمل، وقالوا أنه كان واديًا للنمل - هذه الحشرات المعروفة - وأن سليمان لما خرج بجنوده مر بهذا الوادي، فتكلمت نملة، ففهم سليمان قولها حيث كان يعلم منطق الطير. (تفسير حسيني (أردو))

ولكن كيف علِم المفسرين أن النمل من جنس الطير يا ترى؟ يقول الله تعالى إنه علّم سليمان منطق الطير، ولكنهم يقولون أنه عُلّم منطق النمل أيضًا!

ويقولون أن المطر انقطع مرة في عهد سليمان عليه السلام فقال للناس تعالوا نخرج من البلد ونصلّ صلاة الاستسقاء. فلما خرج بهم رأى نملةً تدعو الله تعالى رافعةً رجليها ووجهها إلى السماء وتقول: رب، نحن أيضًا مِن خلقك، فلا تحرمنا من المطر! فلما سمعها سليمان قال للناس: تعالوا نرجع، لا حاجة الآن لصلاة الاستسقاء لأن دعاء النملة يكفينا، ولسوف ينـــزل المطر بدعائها! (ابن كثير)

ولم يكتف المفسرون بهذا القدر من الغوص في التفاصيل، بل قالوا أن النمل تكون شعوبًا وقبائل كما عند الناس قبائل من مغول وراجبوت وأفغان وغيرها.

وقد ذكروا لفائدتنا أن اسم إحدى قبائلها "بنو الشيصان"، وأن النملة التي تكلمت كانت تنتمي إلى هذه القبيلة. وقد تمكن المفسرون بعد بحث مضن من معرفة اسم تلك النملة أيضًا، وإن لم يتفقوا على اسم واحد لها للأسف. فمن أسمائها التي ذكروها: منذرة، وطافية، ولافية، وخومي. ثم علموا أنها كانت عرجاء. كما ذكروا قامتها أيضًا فقال بعضهم أنها كانت بقدر الديك، وقال بعضهم أنها كانت بقدر الضأن، وبعضهم قال أنها كانت بقدر الذئب. كما اكتشفوا أنه كانت مع هذه النملة أربعون ألف نملة من النقباء، ومع كل نقيب أربعون ألف نملة من المحاربين. (ابن كثير وتفسير حسيني)

والحق أن النملة هنا لا تعني الحشرة المعروفة، وأول دليل على ذلك هو أن الله تعالى يخبر هنا أن سليمان عليه السلام عُلِّم منطق الطير، بينما يقدم المفسرون أول دليل على معرفته بمنطق الطير أنه فهم كلام النملة مع صاحباتها! مع أن المفروض أن يقدموا على صدق هذه الدعوى مثال طير لا نملة، إذ لو كان المراد من النملة هنا الحشرة المعروفة أصبح الدليل غير معقول تمامًا، لأن القرآن الكريم يقول إن سليمان عُلّم منطق الطير وكان يفهم لغتها، ولكنهم يقولون أن سليمان فهم كلام النملة مع صاحباتها. لذا فينبغي أن نفهم المراد من النملة هنا أوّلاً.

والأمر الثاني الذي يستلفت النظر هنا هو قوله تعالى: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾. وإن المفسرين عادةً يفسرون قول النملة ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ بأن لا يدوسَنَّكم سليمان وجنوده تحت أقدامهم. وتفسير الحطم بهذا المعنى ليس صحيحًا، بل يعني الحطم الكسر والهجوم على أحد من شدة الغضب، فقد سُمّيتْ نار جهنم ﴿الْحُطَمَة﴾(الهُمَزة:٥) لأنها تحرق، ولا يقول أحد أن لجهنم أرجلاً تدوس بها الناس؛ كما يُسمى القحط حاطومًا إذ يكسر قوة أهل الأرض (الأقرب). إذًا، فالمراد من قوله تعالى: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.. لا يكسرنّكم سليمان وجنوده، أو لا يهاجمنّكم غاضبين ويدمرونكم.

ثم هناك سؤال يفرض نفسه هنا وهو: كيف يُتوقع من نبي عظيم كسليمان عليه السلام الذي كان يملك جنودًا من الجن والإنس والطير أن يستشيط غضبًا على النمل

ويحاول الهجوم على تلك الحشرات المسكينة؟ لو أخذنا بالمعنى الحقيقي للفظ "الحطم" لكان معنى الآية أن نملة قالت لصاحباتها: ادخلْنَ مساكنكن مخافة أن يأتي سليمان وجنوده بالمعاول والفؤوس ويحفروا مساكننا ويخرجوا منها الغلال وبالتالي يكسروا قوتنا! فهل من عاقل يرضى بهذا المعنى؟

والدليل الثالث الذي هو في منتهى الوضوح هو أن الصيغ التي استعملها الله تعالى هنا هي كلها لذوي العقول، مثل ﴿ادْخُلُوا﴾ و﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، مع أنه لو كان الحديث عن حشرات النمل لقيل "ادْخُلْنَ" و "لا يَحطِمنّكُنَّ". فثبت أن الكلام هنا ليس عن حشرات النمل وإنما عن البشر.

ثم إن قول النملة: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أيضًا يبين أنها لم تكن حشرات النمل لأنها يمكن أن تُداس تحت قدم نبي دَعْك عن أقدام جنود. لو كانت النملة هنا بمعنى تلك الحشرة المعروفة لأصبح قول الله ﷻ: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لغوًا وعبثًا، فمتى ورد في أي كتاب سماوي – سواء في الإسلام أو قبله– أن الأنبياء كانوا يمشون ناظرين إلى الأرض كيلا تداس النمل تحت أقدامهم؟

الحق أن وادي النمل ليس واديًا للحشرة المعروفة، بل هو واد كان يُقيم فيه البشر، حيث ورد في القاموس الشهير "تاج العروس" أن واد النمل يقع بين جِبْرين وعسقلان. أما عسقلان فهي مدينة كبيرة ساحلية تقع في فلسطين على مسافة اثني عشر ميلاً بين ميناء غزة في المنطقة المجاورة لسيناء وجِبْرين. أما "جِبْرين" فهي مدينة شمالية في ولاية دمشق. (معجم البلدان لياقوت الحموي، باب الباء والياء وما يليه)

إذًا، فوادي النمل واد حقيقي يقع إلى جنوب من دمشق بحوالي مئة ميل على البحر المتوسط إزاء بيت المقدس أو قريبًا من ذلك، على الطريق المؤدي من دمشق إلى الحجاز. وكانت كثير من قبائل مدين وغيرها من القبائل العربية مقيمة بهذا الوادي إلى زمن سليمان عليه السلام. (انظر خريطة فلسطين والشام في العهد القديم والجديد في كتاب Nilson Encyclopaedia المجلد السابع عشر، تحت: Palestine)

أما لفظ النملة فقد ورد عنه: "والأَبْرَقةُ مِن مياه نَمْلة." (القاموس المحيط: كلمة البرق)

إذًا، فقد وجدنا بمساعدة القاموس وكتب الجغرافيا قومًا باسم نملة وواديًا باسم النمل، كما علمنا أن هذه المنطقة كانت في الشام قريبًا من مملكة سليمان عليه السلام.

والغريب أن مثل هذه الأسماء كانت متداولة بكثرة في الزمن القديم. ففي جنوب أمريكا قبائل أسماؤها "الذئب" و"الحية" و"العقرب" و"أم الأربعين" وغيرها. بل يوجد في بلادنا أيضًا قوم اسمهم "كادها" أي النمل، وكان هناك في لاهور شخص شهير اسمه نور الدين "كادها" أي النملة. وهناك قوم باسم "كيري" أي الديدان، وقوم آخرون باسم "مكوري" أي الحشرات. وفي كشمير قبيلة اسمها "هابت" أي الدب (تواريخ أقوام كشمير (أردو) ص ٣٠٠). وهذه هي حقيقة نمل سليمان عليه السلام أيضًا، فإنه لما خرج للهجوم على ملكة "سبأ" باليمن مرَّ على واد لقبيلة اسمها النمل، ولكن المفسرين ظنوا أنه مَرَّ بواد لحشرات النمل. ثم قال القرآن إن سليمان عليه السلام لما بلغ هذا الوادي قالت "نملة" أي ملكةُ قبيلة النمل: أيها الناس ادخلوا في مساكنكم مخافة أن يظن سليمان وجنوده أنكم تريدون حربهم فيحطموكم. فأيقن المفسرون من هذا أنه كلام النملة الحشرة، مع أن تعبير "الحطم" تعبير واضح حيث يراد به إغارة قوم على قوم وإلحاق هزيمة نكراء بهم، ولكن المفسرين لم ينتبهوا لذلك. ولو أنهم راجعوا القواميس لوجدوا أن الحطم يعني الكسر. وعليه فالمراد من هذه الفقرة القرآنية أن ملكة قوم النمل قالت لهم: ادخلوا مساكنكم كي لا يكسر سليمان وجنوده قوتكم وشوكتكم.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾، وهنا أيضًا قد جاء المفسرون بالعجب العُجاب، فمع أن الله سبحانه وتعالى يعلن أنه علّم سليمان منطق الطير، إلا أن المفسرين يقولون أنه كان يعلم منطق النمل أيضًا! حيث فهم قول ملكة النمل فورًا، فتبسم ضاحكًا بأن حشرات النمل أيضًا تعلم بأني إنسان عادل ولا يمكن أن أدوسها تحت قدمي إلا خطأً ولكن لن أدوسها عمدًا (الطبرسي). والحق أن كل إنسان شريف - دعك عن نبي - لا يدوس حشرات النمل عمدًا، فقد رأينا كثيرًا من الشرفاء أنهم يمشون على الأرض بحذر عندما تخرج النمل بكثرة في موسم الأمطار كيلا يدوسوها. فثبت أن هذا المعنى باطل.

كل ما في الأمر هو أن سليمان عليه السلام لما علِم أن ملكة قوم النمل قد أمرتهم بدخول بيوتهم وعدم مقاومة جنوده بأي طريق - مخافة أن يثوروا ويهجموا عليهم دون أن يدروا أنها قد أمرتهم بالاستسلام والانقياد - تبسّمَ ضاحكًا بأن الله سبحانه وتعالى قد أذاع صيته الحسن، فالناس يعرفون أنه ليس من الملوك الظالمين بل إنه يعامل أضعف الشعوب أيضًا بالعدل والإنصاف.

الحق أن ملكة النمل قد أمرت قومها بدخول البيوت وإغلاق الأبواب عليهم طبقًا للعادة القديمة خلال الحروب إذ كان المراد منه قبول الهزيمة والاستسلام، فمثلاً قد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا يوم فتح مكة أن من يدخل بيته ويغلق بابه فهو آمن (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر الأسباب الموجبة للسير إلى مكة وذكر فتح مكة في شهر رمضان سنة ثمان). ووفقًا لهذه العادة قالت ملكة قوم النمل أيضًا بأن يدخلوا مساكنهم ويغلقوا أبوابهم كي يعلم سليمان أنهم لا يريدون حربه، أما إذا بقوا خارج بيوتهم فربما يُغير عليهم. فلما بلغ سليمانَ عليه السلام إعلانُها تبسّمَ ضاحكًا، وشكر الله سبحانه وتعالى بأنه قد أشاع خبر صلاحه وورعه في الأقطار البعيدة، حيث علم هؤلاء القوم أيضًا أن سليمان لا يحارب أحدًا ظلمًا وأنهم إذا أغلقوا أبوابهم فلن يتعرض لهم، مع أن من عادة الشعوب الغازية السلب والنهب أثناء الحرب. فدعا ربه وقال: يا رب إن هذا الصيت الحسن ما هو إلا بفضلك، فوَفِّقْني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل على الدوام أعمالاً صالحة ترضاها.. أي كما قد اعترفتْ ملكة قوم النمل بأن سليمان وجنوده قد يضرون قومها خطأً ولكن لن يضروهم ظلمًا واعتداءً، فوفِّقْني وجنودي في المستقبل أيضًا أن نتحلى بالأخلاق الفاضلة حتى يشهد الناس أن هؤلاء القوم لا يعتدون على أحد عمدًا، وأدخِلْني برحمتك في عبادك الصالحين.

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢١﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

التفسير: أمر سليمان عليه السلام قادته وجنوده بالمثول أمامه، فلما تفقّدهم وجد أحد قادة كتيبة العلماء غائبًا وكان اسمه "الهُدهُد". فثار سليمان غضبًا لغياب قائده في ذلك الوقت الحرج الذي كان يتأهب فيه لمحاربة بلد آخر. فظن أن هناك مؤامرة تحاك ضده، فقال: ما لي لا أرى الهدهد أم أنه قد غاب وهرب؟ فإني سأعاقبه عقابًا شديدًا أو سأقتله إلا إذا أتاني بعذر واضح يبرر غيابه.

يظن المفسرون أنه كانت في جيش سليمان عليه السلام كتائب طيور حقيقية، وكان الهدهد - هذا الطير الذي يصيده الأطفال بالنبلة - أحد القادة. وهذا الجيش القوي خرج سليمان لفتح بلاد اليمن (معالم التنـزيل، والطبري)

فأولاً: كل إنسان عاقل يدرك أن ما يقوله المفسرون لا يدل على كون الهدهد قائدًا، بل يؤكد غباء سليمان - والعياذ بالله - مع أن أنبياء الله تعالى لا يكونون أغبياء. فمن المستحيل أن يخرج إنسان عاقل لفتح بلاد اليمن بجيش من الحمائم والزغاليل والعصافير والهداهد والسمان والحجل. والحق أن التغلب على مثل هذا الجيش لا يتطلب جيشًا بل عند وصول خبره إلى البلدة سيخرج الأطفال بالنبال إلى الشوارع، ويجعلون اليوم يوم عيد لأهلها كلهم إذ يهيئون لهم شواءً لذيذًا من لحوم الطيور. أفستكون هذه حربًا أم مسابقةً لصيد العصافير والطيور؟ بقراءة هذه القصص الخرافية التي ذكرها المفسرون في تفاسيرهم يضطر المرء لتصديق ما قاله تيمورلنك بأن فرقة العلماء ينبغي وضعها في مؤخرة الجيش، إذ يستهينون بالحرب بهذا الشكل المخزي.

والأغرب من ذلك أن سليمان عليه السلام - الذي قالوا عنه أنه لم يرضَ أن يدوس نملة واحدة تحت قدمه عمدًا - يمتلئ غيظًا ليهدّد الهدهد الذي لا عقل له وحجمُه بحجم العصفور: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾. فمن المحال أن يتوقع نبي من الطيور ما يتوقعه المرء من أذكياء الناس. إن القرآن الكريم بين أيدينا، فمتى ورد فيه أن الطيور تبلغ من الذكاء والعقل بحيث إن بعضها إذا ارتكب خطأً فعلى المرء أن يستلّ سيفه ويقول له: سأضرب عنقك أو لتأتيني بعذر مقبول؟ أو هل رأيتَ أحدًا من جيرانك قابضًا على الهدهد وهو يضربه بالعصا ويقول له: لماذا أكلتَ غلالي؟ وإذا رأيت شخصًا كهذا أتعدّه من العقلاء أم من المجانين؟ فثبت أن المفسرين الذين قالوا أن سليمان قال هذا الكلام لطير الهدهد إنما نسبوا الغباء إلى سليمان عليه السلام، إذ يقول هنا صراحة ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، وهذا يعني أن طير الهدهد هذا كان يعرف الأدلة والبراهين مثل سقراط وأبيقراط وأفلاطون، ولذلك توقع منه سليمان أن يقدم أدلته على براءته.

ثانيًا: يخبرنا القرآن الكريم أن سليمان كان يملك جنود الجن والإنس والطيور، ولكن الغريب أنه لا يفكر إلا في الهدهد من بين كل الجيش، فيقول: ما لي لا أرى الهدهد؟ إن الدول في الدنيا لا تقبل عند التعبئة أي إنسان قامته أقل من خمسة أقدام، ولكن سليمان عليه السلام يقوم بتعبئة عجيبة حيث يقبل طير الهدهد في جيوشه! والأغرب من ذلك أنه لم تكن في جيشه أي كتيبة خاصة بالهداهد بل فيه هدهد واحد فقط! فما الحكمة من اصطحابه؟ وما هو العمل الذي سينجزه؟

وثالثًا: يعلن القرآن الكريم أن الهدهد قال كذا وكذا، مع أنه يتحدث هنا عن معرفة سليمان منطق الطير، فكان المفروض أن تُذكر هنا معجزة سليمان عليه السلام، ولكنهم يذكرون هنا معجزة الهدهد التي هي في الحقيقة أكبر من معجزته عليه السلام.

ورابعًا: أن الهدهد ليس من الطيور السريعة الطيران حتى يقال أنه طار كل تلك المسافة الطويلة، بل الحق أنه عادةً يموت في المنطقة التي يولد فيها. بينما يتضح من القرآن أن الهدهد طار من الشام إلى مُلك "سبأ" لأكثر من ثمانمئة ميل دون انقطاع،

ثم عاد إلى سليمان بخبرهم. وهذا يعني أنه كان أسرع من الطائرات، وأن المعجزة هي للهدهد لا لسليمان، مع أن المفسرين يريدون هنا بيان معجزة سليمان عليه السلام.

خامسًا: وقد أرى الهدهد معجزة أخرى حيث كان يعلم من دقائق الشرك والتوحيد ما لا يعلمه اليوم المشايخ أيضًا. فانظر كيف يبين أسرار التوحيد العالي إذ يقول ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾.

ثم إن مشايخ اليوم يرون جيرانهم يأتون أعمالاً وثنية ولا ينهوهم، ولكن انظر إلى غيرة الهدهد الدينية حيث يطير في كل حدب وصوب ليخبر سليمان بما يأتيه الناس من أعمال الشرك وعبادة الأصنام.

سادسًا: ثم إن الهدهد خبير بالأمور السياسية أيضًا حيث يقول لسليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. أي أن عند ملكة "سبأ" كل ما يحتاج إليه الملك. وهذا يعني أن الهدهد قام بفحص خزائنها ومؤسساتها، فلذلك ذكر في تقريره أنها تملك كل ما هو ضروري للحكم.

سابعًا: ثم إن الهدهد يعلم جيدًا الشيطان ومكائده إذ يقول من كان الشيطان وليه نشأت في قلبه أفكار سيئة. بل الحق أن الهدهد يعلم النتائج الوخيمة للأفكار السيئة أيضًا حيث يقول: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.. أي أن الشيطان قد صدّهم وأبعدهم عن سبل قرب الله سبحانه وتعالى من جراء أفكارهم السيئة. إذًا، فإن الهدهد لم يكن مجرد طير بل كان عالمًا كبيرًا. يا ليتنا نجد هدهدًا واحدًا مثله لنطرد جميع المشايخ من وظائفهم ونعينه مفتيًا للبلاد.

ثامنًا: إن الهدهد كان يعلم جيدًا كيف يجب أن يكون عرش الملوك حيث يقول لسليمان عليه السلام: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.. أي أن ملكة سبأ تملك عرشًا عظيمًا ولكنك لا تملك مثله. وكأنه يُغريه بذلك بالهجوم على الملكة.

إن هذه الأمور كلها تدل دلالة واضحة على أن هذا الهدهد لم يكن طيرًا، بل كان إنسانًا. ذلك لأن القرآن يعلن صراحة أن أمانة الشرع لم تحملها الملائكة ولا السماوات ولا الأرض، إنما حملها الإنسان وحده (الأحزاب:٧٣)، وأنه وحده الذي

يعلم أسرار شريعة الله تعالى. إن الملائكة تعلم جانبًا واحدًا من الأشياء وهو جانب الخير، أما الإنسان فيعلم الجانبين، جانب الخير والشر، وينظر إلى الأمور كلها. وما دام هذا الهدهد واقفًا على أسرار الشريعة فثبت أنه كان إنسانًا لا طيرًا، لقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ حيث بين تعالى صراحة أن لا أحد من الخلائق يحمل أسرار الشرع سوى الإنسان.

ومن الناس من يقول: إذا كان الهدهد إنسانًا لا طيرًا، فلماذا قال سليمان ﷺ لأذبحنه؟

فاعلم أن الذبح في العربية يعني القتل والفتك أيضًا (تاج العروس). كما قال الله تعالى في القرآن الكريم عن فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾(القصص:٥).. أي أنه كان يقتل أبناء بني إسرائيل. فلو جاز للمفسرين اعتبار الهدهد طيرًا لورود لفظ الذبح في حقه، فلم لا يجوز اعتبار أبناء بني إسرائيل طيورًا لورود الذبح في حقهم أيضًا؟

ثم اعلم أنهم إذا أطلقوا اسم شيء على شيء لمشابهة بينهما وصفوا المشبَّه بكلمات تناسب المشبَّه به، وهو مما يفضي على الكلام جمالاً وبهاءً. فمثلاً إذا شبّهتَ إنسانًا بالأسد، فتقول إنه يزأر كالأسد، ولا تقول إنه يغنّي كالأسد. وبالمثل لما استعمل القرآن الكريم لفظ الهدهد لهذا الإنسان استعمل له كلمة الذبح أيضًا تزيينًا للكلام، وإن كان هذا قائد جيش.

وهناك سؤال آخر يثار هنا: لماذا سمى القرآن الكريم هذا الشخص هدهدًا؟

لقد سبق أن أجبتُ على هذا السؤال من قبل من الناحية العقلية، إلا أنني أبين المراد منه. عندما نتصفح كتب بني إسرائيل لمعرفة ماهية الهدهد ولنرى ما إذا كان فيهم إنسان بهذا الاسم، نكتشف أنه كان في اليهود في زمن سليمان ﷺ أناس كثيرون اسمهم "هُدَد". والحق أن الاسم العبراني "هُدَد" تحوَّلَ إلى الهدهد في العربية شأنه شأن أبرهام الذي صار إبراهيم، ويسوع الذي صار عيسى، وموشي الذي صار موسى في العربية. ولا غرابة في ذلك مطلقًا، خذوا مثلاً مدينة "لكهنؤ" الهندية، فإن أحد العرب عندما ينطقها سينطقها: "لاكهناءو". وبالمثل إن القرآن الذي نـــزل بالعربية عندما ذكر اسم "هُدَد" العبري جعله الهدهد.

والتاريخ يبين لنا أن "هُدَد" كان اسم العديد من الملوك الأدوميين، ومعناه: الجلبة الكبيرة. والهدُّ في اللغة العربية أيضًا يعني الصوت الغليظ (الأقرب). ويبدو أن بني إسرائيل كانوا يسمون الطفل الغليظ الصوت هُدَدًا أو هُدهُدًا. وقد أُطلق اسم "هُدَد" على الملك الأدومي الثالث الذي ألحقَ الهزيمة بقوم مَدْين، وأيضًا على الملك الأدومي الأخير (الموسوعة اليهودية، تحت: Hadad). وكان الهدهد اسم أحد أبناء إسماعيل الطَّيْلاً أيضًا*.

وقد ذكر الكتاب المقدس (في الملوك الأول ١١: ١٤) أحد أمراء الأسرة الأدومية وكان اسمه هُدَد، وكان قد فرّ إلى مصر خوفًا من القتل العام الذي أمر به يوآب.

وورد في الموسوعة اليهودية أن لفظ "هُدَد" إذا ورد في العهد القديم خاليًا من أي صفة أو فعلٍ فيعني أحد أفراد الأسرة الأدومية. (تحت كلمة: Hadad)

باختصار، إن الهدهد تعريب للكلمة العبرية "هُدَد".

الحق أن ولوع المفسرين بجعل تفاسيرهم شيقة قد دفعهم لنسج هذه الخرافات. فمثلاً هناك حيوان معروف باسم الضب، ولكنه اسم لرئيس قبيلة عربية أيضًا – كما يُسمَّى عندنا بعض الهندوس "ببغاء" – وهذا الرئيس العربي حضر مجلس النبيّ ﷺ مرة وأنشد قصيدة في مدحه ﷺ. ثم تحول هذا الحادث الحقيقي فيما بعد إلى خرافة في كتب الوعاظ، حيث ورد فيها أن النبي ﷺ كان يمشي في مكان، فخرج ضب من جحره وألقى قصيدة في مدحه ﷺ. فالذين جعلوا هذه الحقيقة الواقعة خرافة فليس صعبًا عليهم أن يحولوا إنسانًا اسمه الهدهد إلى طير اسمه الهدهد.

ثم يقول المفسرون أن ما دل سليمان الطَّيْلاً على غياب الهدهد هو أنه كان في سفر في برية لا ماء فيها، فحان وقت الصلاة، فأراد الوضوء فلم يجد ماء، فقال لأصحابه: أين الهدهد؟ اطلبوا منه أن يبحث عن الماء. ذلك لأن الهدهد هو الذي كان يدلهم على الماء كلما احتاجوا إليه. فبحثوا عن الهدهد و لم يجدوه. فاستشاط

* لم نعثر على هذا الاسم. (المترجم)

سليمان عليه السلام غضبًا وقال: حينما يأتي الهدهد ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾. (روح المعاني)

ولكن البعض الآخر قد اختلف مع هؤلاء المفسرين وقال إن الواقع أن سليمان عليه السلام كلما سافر أظلته أسراب الطيور، وفي أحد الأيام وصلت الشمس إليه من خلال ثغرة كانت في هذا الظل، فرفع بصره وعلم سبب الثغرة وهو أن الهدهد كان قد ترك مكانه. (القرطبي)

إذًا، فمن عادة المفسرين نقل حكايات خرافية في تفاسيرهم. مع أن كل ما في الأمر هو أن لفظ الهدهد الوارد في القرآن الكريم تعريب لاسم "هُدَد" العبري، والمراد منه أحد أمراء الأسرة الأدومية الذي كان قائدًا في جيش سليمان عليه السلام. كانت الأسرة الأدومية من أعداء سليمان وكانت تعيش خاضعة لمُلكه، فلما فقد سليمان قائده الهدهد ظن أنه ربما خانه وذهب إلى الأعداء للتآمر عليه، فأعرب سليمان عليه السلام عن قلقه وغضبه.

وقد يكون الهدهد رئيس قبيلة عربية، إذ يخبرنا الكتاب المقدس أن أحد أبناء إسماعيل عليه السلام كان يسمى الهدهد. ومن الثابت تاريخيًا أن القبائل العربية كانت مقيمة في الطريق المؤدي من فلسطين إلى اليمن. وكان العرب واليهود يعادون بعضهم بعضًا، ورغم أن العرب خضعوا لملك سليمان إلا أن العداء لم يزُل من القلوب، فلما وجد سليمان عليه السلام أحد الرؤساء العرب غائبًا أوجس منه خيفة فثار وغضب. وبما أن منطقة اليمن التي كان سليمان عليه السلام قد خرج بنيّة الهجوم عليها كانت بلدًا عربيًا فالأقرب إلى القياس أن الهدهد كان أحد الرؤساء العرب.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٣﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ

مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ
أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ أَلَّا
يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

الخَبْء: الخبء: ما خُبِئَ وغابَ. وخَبْءُ الأرض نباتُها، وخَبْءُ السماء: مطرُها. (الأقرب)

التفسير: أي لم يمكث سليمان عليه السلام في ذلك المكان طويلاً حتى رجع إليه ذلك الرئيس العربي الغائب، وقال له: كنتَ تريد الإغارة على مُلك "سبأ" الذي هو منطقة من بلادي، فسبقتُك إليه للاستطلاع، إذ لم تكن هذه المهمة صعبة علي لكوني من العرب وأعرف لغتهم. لقد علمتُ علم اليقين أن امرأة تحكم تلك البلاد حُكمًا رائعًا، وهي تملك كل نوع من الأسباب، وملكها عظيم. علمًا أن قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يعني أن ملكة "سبأ" أُعطيتْ نعم الدنيا كلها، إذ لو كان الأمر كذلك لما قال سليمان عندما أرسلتْ إليه هدية: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾. فقوله هذا دليل على أن الملكة إنما أُوتيت كل ما كان ضروريًا لحُكمها، وأنها حاكمة يقظة.

وربما أراد الهدهد بقوله هذا تخويف سليمان عليه السلام كي لا يستولي على بلاد قومه، ولكن ما قاله بعد ذلك دفع سليمان أكثر للهجوم على تلك البلاد، وهو

قوله إن هؤلاء يعبدون الشمس من دون الله، وأن الشيطان قد زيّن لهم أعمالهم وأضلَّهم عن سبيل التوحيد، وأنهم مصرّون على ألا يسجدوا لله الذي يعلم أسرار السموات والأرض كلها، والذي لم يجعل الشمس والقمر إلا كخادمين له، والذي وهب أنبياءه العلوم المادية والروحانية، والذي هو رب عباده الموحدين، والذي مُلكه أعظم من مُلك هذه الملِكة، وسيكون مُلكه غالبًا على كل مُلك آخر.

وهكذا حاول الهدهد استرضاء سليمان ، وبيّن له أنه لم يغِبْ بدون سبب بل رأى هذا الاستطلاع ضروريًا لمصلحة البلاد.

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾

التفسير: فقال سليمان سنذهب إلى هناك ونرى ما إذا كنت صادقًا في ما قلت أم كنت من الكاذبين. اذهبْ بكتابي هذا إلى هؤلاء القوم وضَعْه أمامهم، ثم تأخر قليلا في انتظار الجواب.

انظرْ هنا أيضًا ما ينصح به سليمان طيرًا من الطيور! إننا نعرف أن الناس يعلقون في عنق الحمام رسالة، ولكن المفسرين قد جعلوا الهدهد ساعي بريد فعلاً. ثم انظر إلى الأدب واللباقة التي يعلّمها سليمان طيرًا لا عقل له، حيث يقول: لا تضع هذه الرسالة في يد الملكة مباشرة لأنه يُعَدّ من سوء الأدب، بل ضعْها أمام حاشيتها ليعرضوها عليها بأنفسهم، فهذا من الآداب السلطانية. ثم لا تتسرع في طلب الجواب - وهذا يعني أن سليمان لم يكن وحده يعلم منطق الطير بل كانت ملكة "سبأ" أيضًا تعلمه - وانتظِرْ حتى يعطوك الجواب، ثم ارجعْ به إلي.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣١﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

الملأ: الأشراف، قيل: سُمّوا بذلك لمَلاءَتهم بما يُلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأي، أو لأنهم يملأون العيون أُبّهَةً والصدورَ هيبةً. (الأقرب)

التفسير: لقد تبين من هنا أن سليمان عليه السلام لم يتوجه إلى بلدهم لمحاربتهم بدون مبرر، بل كان هؤلاء قد تمرّدوا عليه، فذهب لإخماد ثورتهم، حيث يقول: ﴿أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.. أي إذا جئتموني منقادين فسأعفو عما سلف منكم.

وليكن معلومًا أن أعداء الإسلام قد طعنوا فيه بناءً على ورود البسملة في بداية رسالة سليمان عليه السلام، فقالوا أن البسملة التي تستهل بها كل سورة من سور القرآن لم يأت بها القرآن الكريم أول مرة بل كان الأولون على علم بها، وقد سرقها من الكتب السابقة. فقال رودويل (Rodwell) أن البسملة يهودية الأصل. وقال "ويري" (Wherry) إنه لمن المؤكد أن محمدًا قد استعار هذه الكلمة من اليهود والصابئين إذ كان الصابئون يستفتحون كتاباتهم بقولهم: "بنامِ يزدانِ بخشائش گر دادار." (تفسير "ويري" للقرآن الكريم، المجلد الأول ص ٢٨٩).

وقال القسيس سينت كلير تسدل (William St. Clair Tisdall) أن هذه العبارة زرادتشية الأصل إذ تبدأ صحيفة كل نبي في كتاب "الدساتير"◈ بالجملة التالية: "بنامِ إيزد بخشائش گر مهربان دادگر." (ينابيع الإسلام (ترجمة أردية) ص ١٢٧)

◈ هو كتاب الديانة الزرادشتية. (المترجم)

والغريب أن ثلاثة من الكُتّاب المسيحيين يذكرون للبسملة ثلاثة مصادر مختلفة في محاولتهم إثبات كونها مسروقة، فأحدهم يذكر مصدرًا يهوديًا، والآخر مصدرًا صابئيًا، والثالث مصدرًا زرادشتيًا. والحق أن جهودهم المضنية هذه تشكل بحد ذاتها دليلاً على أن البسملة بحرٌ زاخر من المعارف والحقائق، وإلا فكان يكفيهم أن يقولوا أنها لا تحتوي على معنىً خاص.

ثم السؤال الذي يفرض نفسه هو: أيّ من هذه المصادر الثلاثة صحيح؟ إذ من المحال أن تكون كل واحدة من هذه الملل الثلاث قد اخترعت البسملة. لذا فمن واجب هؤلاء المسيحيين أو تلاميذهم أن يفصلوا أوّلاً فيما بينهم ما إذا كان اليهود قد سرقوها من الصابئين أو من الزرادشتيين، أم ماذا؟

ومن الجدير بالذكر أيضًا أن هؤلاء الكُتّاب المسيحيين لم يذكروا العبارة اليهودية التي قد وردت فيها البسملة بحسب زعمهم، بل لم يسموا المصدر اليهودي المزعوم أصلاً، مع أن ديانتهم المسيحية فرع من اليهودية، والصحف اليهودية هي صحفهم أيضًا، وإنما اكتفوا بنقل بعض العبارات من المصادر الزرادشتية والصابئية، مما يدل على أنهم قد انبهروا من جمال هذه الآية وذُهلوا، فراحوا يبذلون كل ما في وسعهم لإثبات أن البسملة موجودة في صحفهم.

وفيما يتعلق بصحف الصابئين والزرادشتيّين فهي غير محفوظة. لا شك أن أجزاء من الصحف الزرادشتية توجد حتى اليوم، ولكن الزرادشتيّين أنفسهم يعترفون بأنها ليست على أصالتها. فليس من المستبعد أن يكونوا قد قاموا بتأليف بعض هذه الأجزاء من عند أنفسهم بعد ظهور الإسلام.

غير أننا لو سلّمنا بصحة صحفهم فلا يقدح هذا في القرآن الكريم أيضًا، إذ هو لا يدّعي أن البسملة نزلت فيه أول مرة، بل إنه يُقر بوجودها قبله حيث أخبر أن سليمان عليه السلام قال في رسالته إلى ملكة سبأ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾. فلو ثبت وجود البسملة عند اليهود أو الزرادشتيين أو الصابئين أو أية أمة أخرى فلا اعتراض على القرآن الكريم ما دام هو يقر بأن سليمان عليه السلام كان يعرفها؛ وإذا كان يعرفها هو فلا بد أن يعرفها أتباعه أيضًا. وقد

يعرفها أنبياء الأمم الأخرى أيضًا، والفرق الوحيد أن مفهوم هذه الآية نزل في القرآن الكريم باللغة العربية، بينما قد وُجدتْ في الأمم الأخرى بلغتهم.

بيد أن ورود هذه الآية في مستهل كل سورة من القرآن الكريم على هذا المنوال لا يمكن أن يُعتبر نقلاً، لأنه في الواقع تحقيق لإحدى النبوءات السابقة. وكل كلام يُعاد بهدف جديد ولمصلحة معينة لا يسمى نقلاً أو سرقةً.

والنبوءة المشار إليها آنفًا قد وردت في العهد القديم، وملخصها أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام أن يأمر بني إسرائيل أن يطهّروا أنفسهم وثيابهم، ثم يأتي بهم إلى أسفل جبل سيناء لسماع كلام الرب معه. عليهم أن يقفوا قريبًا من الجبل أولاً، وعندما يسمعون صوت البوق يقتربون من الجبل أكثر. فلما ذهب موسى إلى الجبل نزل عليه وحي الله تعالى وقد تزامنَه برق ورعد ودخان، فخاف الناس وارتعدوا وابتعدوا. فلما رجع إليهم موسى عليه السلام قالوا له: "تكلَّمْ أنت معنا فنسمع، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت. فقال موسى للشعب: لا تخافوا لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم ولكي تكون مخافتُه أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا. فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب إلى الضباب حيث كان الله." (الخروج: الإصحاح ١٩ والإصحاح ٢٠: ١٩-٢١)

فرجع موسى إلى ربه وقال رب إن قومي يخافون الاقتراب منك، فأوحى الله إليه: "يقيم لك الربُّ إلهُك نبيًا مِن وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون. حَسَبَ كلِّ ما طلبتَ من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلاً: لا أعود أسمع صوت الرب إلهي، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضًا لئلا أموت، قال لي الرب: قد أحسَنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يُطغي فيتكلم باسمي كلاما لم أُوصِه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي." (التثنية ١٨: ١٥-٢٠)

لقد أخبر الله تعالى هنا:

أولاً: أنه سيبعث نبيًا في إخوة بني إسرائيل أي في بني إسماعيل.

ثانيًا: أن النبي الموعود يكون مثيلاً لموسى فيُعطى مثلَه شريعة.

ثالثًا: أنه كلما نزل عليه شيء جديد من وحي الله تعالى قال للناس قبل عرضه عليهم: أبدأ هذا الكلام باسم الله.

رابعًا: أن كل إنسان يحاول تطبيق هذه النبوءة على نفسه كذبًا سيُهلك.

خامسًا: أن من يكفر بالنبي الذي يكون مصداقًا لهذه النبوءة أيضًا سيُهلك.

وقد وضع الله تعالى البسملة في بداية كل سورة من القرآن الكريم وفقًا لهذه النبوءة، فقدم ﷻ دليلاً على صدق النبي ﷺ في مستهل كل سورة قرآنية أمام اليهود والنصارى، كما أقام الحجة عليهم جميعًا بأنهم لِمَ لا يؤمنون بهذا النبي الموعود الذي كلما أراد أن يقرأ على الناس كلام الله تعالى فإنه وفقًا لنبوءة موسى يقول أقرأ عليكم هذا الوحي بسم الله. إذًا، فقد حذر اليهود والنصارى بهذا الأسلوب بأن محمدًا إذا لم يكن نبيًا موعودًا مثيلاً لموسى فسيُعاقب لأن المدعي الكذاب لن ينجو من العقاب الإلهي بحسب هذه النبوءة، أما إذا كان محمد هو النبي الموعود، وإذا كان يقرأ عليهم كلام الله تعالى بالفعل قائلاً بسم الله تحقيقًا لتلك النبوءة فلن يُفلتوا من عقاب الله تعالى بل سيحاسبهم حتمًا.

إذًا، فبرغم رواج البسملة في أمم الأنبياء السابقين فإن ورودها في القرآن الكريم لا يمكن أن يُعتبر سرقة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: قد أقرّ القرآن الكريم بوجود البسملة في الذين خلوا من قبل.

ثانيًا: قد وردت البسملة في القرآن تحقيقًا لنبوءة موسى عليه السلام؛ إذ لو لم تبدأ كل سورة قرآنية بالبسملة لبطلت نبوءته عليه السلام.

فهل يمكن لأحد أن يُثبت أن كَتَبة "الدساتير" كانوا من بني إسرائيل، أو أنهم أتوا بشريعة كموسى، أو أن كل وحي جديد لهم كان يستهلّ بالبسملة؟ كلا بل إن الدساتير كتاب تاريخي يذكر أحوال الأنبياء فحسب. بينما تقول نبوءة موسى عليه السلام: "ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه." مما يعني أن هذه الكلمات تفرض على النبي الموعود أن يقرأ وحي الله تعالى على الناس قائلاً: بسم الله.

فما دامت البسملة قد وردت في مستهل كل سورة من القرآن الكريم وفقًا لهذه النبوءة، فلا يليق بأحد اتهام القرآن الكريم بالسرقة لا سيما الذين هم من أتباع موسى عليه السلام.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٣﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

قاطعة: قطَع فلان في القول: جزَم. (الأقرب)

التفسير: قالت الملكة أيها الرؤساء، أشيروا عليّ في هذه المعضلة، فإني لا أبُتُّ في أمر إلا بعد أن تحضروني وتقدموا مشورتكم.

وهذا يدل أن الديموقراطية كانت سائدة في ذلك الزمن أيضًا، وكانت حقوق الملوك محدودة.

فقال الرؤساء للملكة - وقد رأوا أن أحد قادة جيش سليمان هو طير بقدر عصفور! - أيتها الملكة، إنّا قوم بواسل خبراء بالحرب، فماذا عسى أن يضرنا جيش من الطيور؟ سيصيدها أولادنا في دقائق ويأكلونها. بيد أن القرار في يدك على أية حال، ونحن تحت أمرك. فإن قررتِ أن يخرج قادة جيشك وراء هذه العصافير والطيور على متون خيولهم فسوف ننفذ أمرك، وإن قررت صيد هذا الجيش من العصافير والطيور لنعمل منها شواءً لذيذًا فعلى الرأس والعين!

فقالت الملكة: إن الملوك إذا دخلوا بجيوشهم قرية عاثوا فيها الفساد وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون دائمًا.

والواقع أنك لو تصفحتَ تاريخ العالم لوجدت أن كل قوم قاموا بغزو بلد صبّوا على أهله المهزومين أبشع المظالم مغرورين بانتصارهم وخوفًا من تمردهم عليهم ثانية إذا لم يقوموا بقمعهم إذ لا تطمئن قلوبهم من قِبَلهم. فمثلاً عندما احتلت إيطاليا بلاد الحبشة صبّت عليهم أنواع الفظائع التي يتحدث العرب عنها بكثرة، حيث قاموا بإبادة آلاف الأحباش دونما سبب، وأحيانًا أعدموا الناس على أبواب بيوتهم بدون جريمة ليبثّوا الرعب بين القوم (الموسوعة البريطانية، تحت كلمة: Abyssinia)

إن تاريخ العالم محفوظ منذ آلاف السنين، وستجد في هذا التاريخ كله أن كل شعب منتصر قد ارتكب الفظائع البشعة على الشعب المهزوم إلا محمد ﷺ وأتباعه، وواحد أو اثنان من الملوك الآخرين.

فمثلاً لو قرأت الكتاب المقدس وجدته يأمر أتباعه تجاه أعدائهم المهزومين أنه متى "دفَعهم الربُّ إلهُك أمامَك وضربتَهم، فإنك تحرّمهم. لا تقطَعْ لهم عهدًا، ولا تشفق عليهم..... تهدِمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار." (التثنية ٧: ٢-٥)

وكذلك ورد فيه: "وإذا دفَعها الربُّ إلهُك إلى يدك، فاضربْ جميعَ ذكورها بحد السيف... وأما مُدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربُّ إلهُك نصيبًا، فلا تستبقِ منها نسمةً ما." (التثنية ٢٠: ١٣-١٦)

ولما احتل الإنجليز الهند صبّوا على أهلها الفظائع والويلات، ولم يبرحوا حتى هدأ غضبهم. وإن الجرائم التي ارتكبوها في أيام الثورة* ترتعد لذكرها الفرائص، وقد سمعت بعضها من شهود عيان. كانت جدتي (والدة أمي) تحكي لنا أن أباها كان طريح الفراش بمرض شديد في أيام الثورة، فدهمَ الجنود الإنجليز بيته وقال أحدهم

* أي ثورة ١٨٥٧م. (المترجم)

مشيرًا إليه: لقد رأيت هذا الرجل أيضًا يُحاربنا. فهَبَّ المسكين من سريره فزِعًا، فأطلقوا عليه الرصاص فمات في سريره.

فثبت أن جميع الغزاة عبر التاريخ إذا دخلوا قرية أفسدوها، وإلى هذه الحقيقة نفسها تُشير ملكة سبأ وتقول: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾.. أي أن القاعدة المستمرة منذ القدم أنه كلما احتل ملك بلدًا آخر جعل عِلية القوم فيه أذلاء مهانين. هذه هي سنة الملوك المستمرة، إلا إذا لم يكن الفاتح ملكًا ماديًّا مثل رسولنا ﷺ أو خلفائه، إذ كانوا ملوكًا روحانيين لا ملوكًا ماديين. وهناك ثلاثة أو أربعة آخرون أيضًا من ملوك العالم الذين هم استثناء من هذه القاعدة العامة، إذ لم يكونوا ملوكًا ماديين في الواقع بل كانوا عباد الله الصالحين رغم كونهم ملوكًا. وهناك في كل التاريخ الغربي مثال واحد فقط حيث عامل القائد المنتصر أعداءه بالعفو، ولكن أعداءه لم يكونوا من شعب آخر بل كانوا قومه هو، وهذا المثال هو إبراهام لنكولن الذي كان أحد الرؤساء الأمريكان. فقد حصلت ثورة في عهده في الولايات الأمريكية حيث تمردت ولايات الجنوب على ولايات الشمال، فكانت الغلبة للشمال. فلما أراد إبراهام لنكولن أن يدخل المدينة التي بها قائد الثوار أعدّ قادة لنكولن عُدّتهم لاحتفال كبير بالنصر، وأرادوا أن يدخلوا المدينة عازفين الموسيقى العسكرية، ولكن لنكولن لما رأى استعدادات الاحتفال زجر قادته وقال: أيليق بنا أن نفرح على قتل الأمريكان للأمريكان؟ لقد خضنا هذه الحرب مضطرين وإلا فإن سفك دماء رجال قومنا ليس بأمر مستحسن. ثم قال لقادته: ابقوا بأماكنكم، سأدخل المدينة وحدي. ثم دخلها وحده، ولما دخل في مكتب قائد الثوار جلس أمامه مطأطئًا رأسه على طاولته، ثم قام بعد قليل وقد اغرورقت عيناه بالدموع نتيجة اشتغاله بالدعاء.

هذا هو المثال الوحيد في كل التاريخ الغربي حيث لم يسعَ الغالب لإذلال المغلوب. أما نبينا محمد ﷺ فحياته مليئة بمثل هذه الأحداث. فلما فتح مكة قال لأهلها: لا تثريب عليكم اليوم، فاذهبوا، وذلك برغم أن أهلها الكافرين قد آذوه وأصحابه بشتى أنواع التعذيب سنوات طويلة.

ولم يقتصر عفو النبي ﷺ على هذا فقط، بل لقد أوصى أصحابه مرة قائلاً إن الله تعالى سيعطيكم أرض مصر، فإذا دخلتموها منتصرين فلا تنسوا أن أُمّكم هاجر - رضي الله عنها - كانت من مصر (السيرة النبوية لابن هشام، سياقة النسب من وُلد إسماعيل). هناك فارق زمني كبير بين هاجر والصحابة، ومع ذلك يُذكّر النبي ﷺ أصحابَه بجَدّتهم هاجر - رضي الله عنها - التي مضت قبل ألفين ومئتي سنة، ويوصيهم بمعاملة أهل مصر برفق وإحسان من أجلها. ولا غرو أن مثل هذا النموذج المثالي لا يأتي به إلا الأنبياء فقط، لأن القاعدة العامة أن الملوك الماديين إذا دخلوا بلدًا منتصرين صبوا على أهله أبشع المظالم وقتلوهم بلا هوادة.

إذًا، فإن ملكة "سبأ" لما استشارت أكابر قومها بعد استلام رسالة سليمان عليه السلام قالوا إنا مستعدون للتضحية في سبيل بلادنا فَأْمُرينا بما تريدين. فقالت لهم ما الجدوى من موتنا إذا لم ينفع وطننا؟ ليست القضية ما إذا كنا مستعدين للحرب أم لا، إنما القضية هي: ما إذا كان موتنا ينفع بلادنا أم لا. ينبغي أن نرى ما إذا كانت حياتنا وخضوعنا لملك سليمان أنفعَ لنا أم أن نحاربه ونموت ليخلو الملك له. إذ ليس أمامنا إلا خياران: إما أن يبقى الملك بأيدينا وتكون العظمة والمجد لسليمان الذي ندفع له الجزية، أو نهلك في الحرب ليأخذ سليمان ملكنا. وقالت لهم الملكة بعد مداولة الرأي: واعلموا أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذلّةً.

واعلم أن قولها هذا لا يعني ما يُفهَم منه عادة بأنه كلما تأتي في البلاد حكومة جديدة تجعل كبار القوم أصاغرهم وأصاغرهم أكابرهم، ذلك لأن البلاد لا تتضرر في هذه الحالة وإن صار الصغار كبارًا والكبار صغارًا، إنما يتحدث القرآن هنا عن الضرر الذي يلحق بالبلاد عندما يحتلّها ملكٌ أجنبي، حيث يجعل الملك الجديد الغريب كبار أهلها أذلة، ويجعل أذلّتها أكثر ذلاً وهوانًا. بتعبير آخر إن الشعب الأجنبي الغالب يعيّن على البلاد حكّامًا جددًا ورؤساء جددًا، فتفرض عليها قوانينها ونظامها ومسؤوليها وحكامها. فمثلاً لما احتلّ الإنجليز الهند جعلوا الحكام والمسؤولين من قومهم، ولما جاء إليها المغول عملوا على النهوض بأفراد قومهم، ولما استولى عليها الأفغان وضعوا على المناصب القيادية أفراد قومهم، ولما حكَمها الآرية

رفعوا قومهم وجعلوا الشعوب المعززة الأخرى مثل "غوند" و"بهيل" من الأذلّين الأراذل. إذًا، فكل قوة أجنبية تُحدث في البلاد تغييرًا جذريًا وتقيم نظامًا جديدًا بالقضاء على النظام القديم كي لا يتمكن أهلها من التمرد عليهم ثانية.

أتذكر جيدًا أنني ذهبت مرة إلى مدينة دلهي، فأشاروا إلى رجل وقالوا لي: إنه أحد أمراء الأسرة المغولية. وكان هذا الأمير يمشي في ميدان "شاندني شوك" وأمام "لال قلعة" حاملاً نرجيلة كان يعرضها على الناس للتدخين، فكان بعض المدمنين يدخنوها ويعطونه قرشًا أو قرشين. لقد ألجأت عزة النفس هذا الأمير إلى هذه الحيلة بدلاً من سؤال الناس. إذًا، فإن تاريخ العالم أيضًا يشهد على أنه كلما استولت على بلد دولةٌ أجنبية جعلتْ أعزّةَ أهله أذلّةً، وألقت أفراد الأسرة الحاكمة في الحضيض بعيدًا عن السياسة والحكم، ووضعت زمام الحكم في أيدي قوم يُبغضون الحكومة السابقة، وذلك كي لا تبقى هناك فرصة لصعودهم إلى سدّة الحُكم ثانية. انظروا إلى الإنجليز كيف جعلوا الراجات والمهراجات أعزةً في الهند وجعلوا أفراد الأسرة الملكية المغولية أذلةً بحيث لا نجد لهم اليوم أثرًا.

وقول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ لا يعني أنهم يُهينون أعزة البلاد فحسب، بل له مفهوم آخر أيضًا: وهو أن اللئام إذا استولوا على الحكم وظلموا الفقراء والضعفاء وعديمي الحيلة معتبرين أنفسهم أعزّةً، ثارت الغيرة الإلهية ضدهم نتيجة سوء أعمالهم، فيرحم الله الضعفاء الفقراء، ويسلط على هؤلاء اللئام الظالمين من يقضي على عزهم الزائفة ويذيقهم أنواع الخزي والهوان، وهكذا يجعل الله الظالمين مغلوبين والمظلومين غالبين. فمثلاً لما توفي سليمان عليه السلام وتربع ابنه على العرش لم يعامل الرعية برفق وإحسان، فثارت عليه عشر من قبائل بني إسرائيل، وتقلصت مملكة سليمان العظيمة إلى ولاية صغيرة في عهد ابنه. الحق أن بعضًا من هذه القبائل حاولت في زمن سليمان عليه السلام أيضًا إضعاف ملكه بإعلان التمرد عليه، ولكنه قمع ثورتهم بتأييد من الله تعالى، ولكن لما خلفه ابنه تشاورت عشر من قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة وقالوا فيما بينهم: تعالوا نذهب إلى الملك ونطالبه بأن لا يُعاملنا بقسوة. لقد ظنوا أن الملك سيُصاب بالرعب بسبب اتحادهم، فيرضى ببعض

مطالبهم. والواقع أنهم لو ذهبوا إلى سليمان في حياته بشكواهم ومطالبهم فربما لم يرض بها، ولكن لا بد أن يكرمهم ويعزهم على الأقل، ويخبرهم بلطف أن ما يفعله إنما هو لمصلحتهم. أما ابنه هذا فلم يكن من أهل التقوى والورع ولا مؤيَّدًا من الله تعالى، فلما سمع بما دار بين القبائل العشر استشاط غضبًا، واستشار أمراءه ووزراءه وأصحابه الذين كانوا يفكرون بطريقته، فقالوا له: عليك أن تلقي الرعب في قلوبهم من أول يوم. فلما حضره رؤساء القبائل وقالوا له أيها الملك، كنا خادمين مطيعين لآبائك، ولكنا نرى أننا نُعامَل بقسوة بصدد بعض القضايا، فنرجو أن ترفق بنا. فقال الملك في كبريائه وغروره: إذا كنتم تخدمون آبائي وتنصاعون لهم فلم تمنّوا عليّ بشيء، وإذا كانوا قد قهروكم على طاعتهم، فلا تظنوا أني سأخاف مما تثيرون الآن من ضجة وجلبة، بل سأعاملكم بأشد مما عاملوكم به، فانسوا هذه المطالب، وإلا سوف أقتلع ألسنتكم. فلما سمعوا جوابه القاسي تمردوا أكثر واجتمعوا في ناحية من بلاط الملك للتشاور وقرروا أنه ليس أمامهم الخيار إلا إعلان الثورة. فنصب ممثلو القبائل العشر هؤلاء واحدًا منهم ملكًا عليهم ورجعوا إلى ابن سليمان وقالوا له: ها نحن نعلن الثورة على حكمك. وهكذا انفصلت القبائل العشر واستمر حكمهم عدة قرون، أما حكم ابن سليمان فأصبح منحصرًا في ولاية صغيرة. (أخبار الأيام الثاني ٩: ٣١، و١٠: ١-١٩، و١١: ٥-١٢)

هذا مثال أولئك القوم الظالمين الذين يحكمون الناس بقوة العصا، ويظنون أنهم أعزة القوم. ولكن عندما يبلغ سيل ظلمهم الزبى تثور الغيرة الإلهية، وتقع الثورة في البلاد فيصبح أعزتها أذلة وينالون العقاب على سوء أعمالهم.

لا شك أن قول ملكة "سبأ" هذا قد جاء في سياق الحديث عن السياسة، ولكنه يمثل أيضًا الإشارة إلى ذلك القانون الروحاني الذي يعمل عند بعثة نبي في الدنيا؛ فكما أن الملوك الماديين يأتون بانقلاب في البلاد كذلك يحدث عند مجيء الأنبياء الذين هم ملوك المملكة الروحانية، فيتحقق قول الله تعالى ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ حيث يصبح كثير من الأعزة في زمنهم أذلةً وكثير من الأذلة أعزة، وتنال كثير من الأمم المحتقرة الذليلة العزة ببركة إيمانها بنبي الله، وتصير كثير من الأمم

القوية ذليلة محتقرة جراء إنكار النبي. بل الحق أن التاريخ الطويل للعالم يكشف أن الحقائق السماوية تزدهر عادة في المناطق التي يُعتبر أهلها جاهلين همجيين بقوة أكثر وعلى نطاق أوسع، إذ لم ينتشر تعليم نبي من الأنبياء إلا بين أمة كانت تُعتبر أكثر الأمم تخلفًا وانحطاطًا، ولكنها ببركة تلبيتها لنداء الله تعالى أصبحت فاتحة للعالم وحاكمة على الدنيا.

الواقع أن الله تعالى قد جعل فطرة الإنسان - مهما كان جاهلاً - تستنتج بعض النتائج تلقائيًا مما يحدث حوله. والحق أن هذا الأمر لا يتوقف على الإنسان فحسب، بل نرى هذه الظاهرة في الحيوانات والأشجار أيضًا؛ إذ الثابت علميًا أن بعض المخلوقات تكتسب ألوان الأشجار التي تعيش فيها. خذوا مثلاً الفراَشة التي هي حشرة صغيرة لا عظم فيها ولا لحم، ومع ذلك حين نراها تطير بين الأزهار تصيبنا بألوانها الجميلة بالذهول والدهشة. ومن ذا الذي يمكنه أن ينكر أن ألوانها الجميلة الزاهية إنما هي بسبب الأوراق والأزهار التي تعيش فيها؛ إذ ليس ألوانها إلا انعكاسًا لألوان الأوراق والأزهار؛ ومن ذلك تجد أن ألوانها ليست دائمة ثابتة خلافًا لألوان المخلوقات الأخرى. فمثلاً لو حاولت إزالة لون الببغاء الأخضر لم تنجح في ذلك، أو لو حاولت محو لون الحمامة البني لم تستطع أيضًا، ولكنك لو أخذت جناح الفراشة بين أناملك وفركته لتلونت يدك بلونه، مما يدل على أن لون الفراشة ليس إلا انعكاسًا للأشعة المنبعثة من الأزهار والأوراق التي تعيش فيها. وعندما تنعكس هذه الأشعة على الفراشة فترة طويلة تكتسب هذا اللون بشكل دائم. وبالمثل فإن الحيوانات التي تعيش في رمال الصحراء تكتسب لون الرمال بحيث إنك لا تنتبه أحيانًا لها مع أنها تكون رابضة أمامك. ففي بعض الأحيان يكون الغزال بل قطيع من الغزلان رابض أمامك في التلال الرملية ومع ذلك لا تنتبه لها، وإنما الصائد الماهر ينتبه لذلك. وليس ذلك إلا لأن الغزلان قد اكتسبت لون الرمال شيئًا فشيئًا بحكم عيشها فيها فترة طويلة. والحال نفسه بالنسبة للأشجار التي تكتسب ألوانها من ألوان بيئتها، وكذلك بالنسبة للناس الذين يتأثرون من البيئة التي يعيشون فيها. يمكنك أن تسميهم همجيين جاهلين بعيدين عن التمدن والحضارة،

ولكن هل تظن أن عقولهم لا تعمل بقدر ما يعمل عقل ببغاء أو فراشة أو غزال؟ كلا، كل ما يمكننا قوله هو أن الببغاء والفراشة والغزال كما لا تقدر أن تعبّر عن تأثير البيئة فيها كذلك لا يعبّر هؤلاء الجاهلون الهمجيون عن تأثير بيئتهم فيهم، ولكن لا يسعنا الإنكار أنهم يتأثرون من بيئتهم حتمًا ويتأقلمون بحسبها. فمثلاً لو سألت أحدهم ما إذا كان قد تأثر من البيئة التي يعيش فيها لقال لك: لا، بينما الحقيقة أنه قد تأثر منها حتمًا، ولكنه لا يدري ذلك كما لا تدري الفراشة أنها تتأثر من ألوان الأزهار، ولا يدري الغزال أنه يتلون بلون الرمال، ولا تدري النحلة ما العسل وما هي فوائده، ومع ذلك فهي تمتص رحيق الأزهار وتحوّلها في بطنها عسلاً، ثم تُخرج قطراته من فمها شاءت أم أبت. وكذلك فإن الشعوب التي أهملتها الدنيا هي تتأثر من أوضاعها وبيئتها، وبرغم أنها لا تدري في الظاهر أن ظروفها تصوغها في قالب معين، إلا أنه لا يزال في قلوب أفرادها إحساس ضئيل بأن الله تعالى كان قد خلقها للانتفاع من نعم الدنيا، وقد أخذت الشعوب الأخرى نصيبها منها، ولكنهم لم يشتركوا بعد في هذا السباق بل قد أهملتهم شعوب الدنيا وطردتهم بعيدًا وحرمتهم من الانتفاع منها. إن هؤلاء لا يزالون يتمتعون بخيرات الدنيا منذ أجيال وأجيال، ولكنهم لم يعطونا الفرصة للتمتع بها. إن هذا الإحساس يظل موجودًا في قلوب الشعوب المقهورة المحرومة ولكن بشكل غير ملموس. وعندما يرفع نبي من عند الله تعالى نداءه أنه قد جاء ليأخذ بالشعوب المهملة المقهورة إلى قمة الرقي والازدهار تلتهب الحسرة في قلوب تلك الشعوب وتنم تصرفاتهم عن كربهم، فيقولون: ها قد جاء يوم تحقق آمالنا وزوال نحوستنا، تعالوا نؤمن بهذا النبي فنحكم العالم ونبذل كل ما في وسعنا لاسترداد حقوقنا.

مما لا شك فيه أن الأرض المزروعة منذ زمن طويل تُخرج صنوف الخضار والثمار والأزهار، وتسرّ خضرتها العين وتغذّي ثمارها الناس وتسد أوراقها جوع الحيوانات، ولكن لا غرو أيضًا أن تلك الأرض تفقد طاقتها وقدرتها نتيجة طول الاستعمال. أما الأرض المجاورة لها التي لم تُزرَع بعد فتكون أقدر على الإنتاج إذا ما تم حرثها وزراعتها. والفلاح الذكي يرغب دائمًا في الأرض المهملة المتروكة بدون

حراثة منذ قرون ولا يرغب في الأرض التي تُحرث من آلاف السنين، إذ يعلم أنها لن تدرّ عليه بنفع كبير، بل إن الأرض التي تبدو جرداء خربة غير معمورة ستكون أكثر ريعًا وإن تطلبت منه جهودًا أكثر. إن الجهال من الناس يشترون الأراضي الغالية الثمن التي تكون قريبة من القرى، ولكن المزارعين الأذكياء يشترون الأراضي الخالية غير المحروثة، والنتيجة أن الناس الذين يشترون الأراضي المجاورة للقرى يملك بعضهم أحيانًا مئة أو مئتي فدان، ولكنه يعيش في فقر حيث تجد إزاره رثًا باليًا ولا يغطي جسمه تمامًا، بينما تجد الشخص الذي يملك – مثلاً – خمسة وعشرين فدانًا من الأرض غير المحروثة من قبل، فيعيش في رخاء ويلبس أفضل ثياب ويأكل أطيب طعام، ويُعَدّ من كبار المزارعين، مع أنه لا يملك إلا ثُمن ما يملكه المزارع الآخر من الأرض. لماذا يعيش من يملك أرضًا أكثر في فقر، ويعيش من يملك أقلّ في رخاء، يا ترى؟ إنما سببه أن الأخير اشترى بذكائه أرضًا لم تُستهلك طاقتها، وأما الأول ففضّل شراء أرض فقدت كل طاقتها، فخسر رغم أنه أنفق أكثر، وربح الآخر رغم أنه أنفق أقل. لا شك أن الأرض القريبة من القرى والمدن أيضًا مفيدة من الناحية العمرانية إذ يمكن أن تُباع بأسعار غالية من أجل البناء والعمارة، ولكن فيما يتعلق بالإنتاج الزراعي فإن الأرض الخالية هي الأكثر ريعًا، إذ من القواعد الزراعية أيضًا ألا تُزرَع الأرض فترة من الزمن إذا أرادوا إنتاجًا أكثر.

مما لا شك فيه أن بعثة النبي ﷺ بين العرب لم تكن إلا فضلاً من الله تعالى وتحقيقًا للأنباء الإلهية السابقة، ولا شك أيضًا أن أفعال الله ﷻ لا تخلو من حكمة ولذلك يسمى حكيمًا، وما دام الله تعالى لا يفعل شيئًا إلا لحكمة ما فلا بد لنا من الاعتراف بأن بعثة النبي ﷺ بين العرب أيضًا كانت تنطوي على حكمة عظيمة، وهي أن بلاد العرب ظلت محرومة من العز والمجد منذ آلاف السنين. لا شك أن العرب قاموا بمعارضة النبي ﷺ في أول الأمر حيث كفروه وكذبوه وشتموه، ولم يألوا جهدًا في محاولة القضاء عليه، ومع ذلك فإنهم لما سمعوا قول النبي ﷺ: أيها العرب، لقد جئت لأجعلكم ملوك العالم، أخذتْ قلوبهم تخفق بسرعة وقالوا: ما هذا الصوت الذي تسمعه آذاننا؟ ثم فكروا أكثر وقالوا في أنفسهم: إنه نفس

الصوت الذي كان آباؤنا ينتظرون سماعه منذ مئات السنين. فلما نسوا المعارضة فيما بعد وزالت العداوة من قلوبهم أحدث هذا الصوت ثورة في نفوسهم وبدأوا يندفعون إلى النبي ﷺ كالمجانين قائلين: لبيك يا رسول الله، لبيك يا رسول الله، إذ أدركوا أن زمن غلبتهم قد جاء. فثارت عواطفهم الدفينة وهاجت أمانيهم القديمة، فكسروا كل حاجز واجتمعوا حول هذا المنادي ﷺ. يقول المؤرخون إن النبي ﷺ لما رفع هذا الصوت بدا وكأن الصحراء العربية الخالية من الماء قد تحولت إلى بحر زاخر وأخذت أمواجه ترتفع وتصطدم بالبلاد المجاورة، ثم إلى البلاد التي بعدها، حتى اكتسحت كل تلك البلاد والأقطار. الحق أن ذلك الإحساس الدفين في قلوب العرب بأنهم ظلوا محرومين من فرصة للرقي والتقدم هو الذي جعلهم كالمجانين، إذ قالوا في أنفسهم: كيف يمكن أن يأخذ العالم كله نصيبه من الرقي والتقدم ونظل محرومين منه؟ فخرجوا على إبلهم مندفعين كالمجانين حتى أطاحوا بعرش كسرى وقيصر، وبسطوا حكمهم إلى أطراف الأرض. هذا هو التدبير الذي اتخذه الله تعالى لرقي النبي ﷺ وعظمته، إذ بعثه في بلد كان في قلوب أهله مشاعر مكبوتة منذ قرون، إذ قالوا في أنفسهم: لقد أخذ سائر العالم نصيبه من الدنيا ولكننا لا نزال محرومين منه. فتشابه حالهم مع حال الأعمى الذي أراد الأكل مع رجل بصير؛ فيحكى أن أعمى وبصيرًا جلسا للأكل معًا في طبق واحد، ففكر الأعمى أن صاحبه يأكل أكثر منه لأنه يبصر، فأخذ يسرع في الأكل. ثم فكر أن صاحبه قد تنبه إلى ما فعل، ولا بد أنه أيضًا بدأ يأكل بسرعة، فأخذ الأعمى يأكل بكلتي يديه. ثم فكر أن صاحبه أيضًا يفعل مثله، فأخذ الطبق في يده وقال لصاحبه: لقد أكلت نصيبك وما بقي هو نصيبي أنا. مع أن الواقع أن صاحبه البصير لم يكن قد أكل حتى لقمة واحدة، وإنما ظل يضحك على ما فعله الأعمى. وهذا ما فعل العرب أيضًا، حيث حملوا من أمام باقي العالم طبق المُلك والحُكم قائلين: لقد أخذتم نصيبكم وما بقي هو نصيبنا نحن.

باختصار هذا هو التدبير الذي اتخذه الله تعالى من أجل غلبة النبي ﷺ، إذ بعثه في أمة كانت محرومة من الرقي والغلبة منذ مدة طويلة، وكانت في قلوبهم مشاعر

مكبوتة وأمانٍ دفينة عبر القرون، وكانوا ينتظرون فقط نداء منادٍ ليهيج مشاعرهم ويجعلهم ملوكَ العالم. كانت قلوبهم مليئة بالغضب والثورة بأن الشعوب الأخرى لا تزال تتمتع بنعم الدنيا ولا تعطيهم منها شيئًا. ومن المعلوم أن المرء إذا كظم غيظه على أحد سنةً أو سنتين ثم وجد فرصة لصب جام غضبه عليه حطَمه وكسره، فما بالك بقوم كان غيظهم مكبوتًا منذ قرون طويلة؟

كان سيدنا المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا قصة للمهراجا "رنجيت سنغ" بأن أحد الطباخين وضع مرةً في طعامه ملحًا أكثر من اللازم خطأً، فعاقبه المهراجا على ذلك بمئة جلدة. وكان للمهراجا وزيرٌ مسلم طيب القلب اسمه عزيز الدين، فقال له: لا يليق بجلالة الملك أن يضرب الطباخ مئة جلدة على جريمة زيادة الملح في الطعام! فقال المهراجا: أيها الوزير لا تظن أنني عاقبته بسبب الملح الزائد، بل الحق أنه قد أكل مئة خروف لي أثناء فترة خدمته، وقد ضربته سوطًا على كل خروف؛ أما الملح الزائد فهو مجرد عذر لعقابه على جرائمه السابقة.

إذًا، لو كبت المرء مشاعره لسنة أو سنتين أصبح كالمجنون من فورة غضبه، فما بالك بالقوم الذين ظلوا يكبتون مشاعرهم قرونًا طويلة، إذ كانوا يرون أن العالم قد أخذ نصيبه من الدنيا ولم يعطهم نصيبهم منها؟ والحق أن مثل هذه المشاعر الدفينة تلعب دورًا كبيرًا في رقي الشعوب. لا شك أنها تتأثر من أوضاعها، ولكن مشاعرها لا تكون واضحة المعالم لها أيضًا شأن الفراشة التي لا تدري أنها تكتسب ألوان الأزهار، ومثل الحمامة التي لا تعلم أنها تكتسب لونًا رماديًا، ومثل الببغاء التي لا تعلم أنها تكتسب لونًا أخضر، ومثل الغزال الذي لا يعلم أنه يكتسب لونًا رمليًا. ولو كان للغزال لسان وسألته هل تكتسب لون الرمال، لم يستطع أن يقول: نعم، إلا أن رغبته في الاختفاء في رمال الصحراء تُكسبه ذلك اللون تلقائيًا من حيث لا يدري. ولو كان للفراشة التي تعيش بين الأزهار الحمراء لسان تنطق به لم تستطع أيضًا أن تقول إنها تكتسب لونًا أحمر، إلا أن رغبتها في الاختفاء بين الأزهار الحمراء مثلاً تُكسب أجنحتها لونًا أحمر من حيث لا تدري. ولو كان للببغاء الخضراء لسان تنطق به لما استطاعت أن تقول إنها تكتسب لونًا أخضر من

الأشجار، ولكن رغبتها في الاختفاء بين الأوراق الخضراء تُكسبها لونًا أخضر من حيث لا تدري. كذلك حال الشعوب المتخلفة الهمجية المنعزلة عن باقي العالم المتحضر والمحرومة من الحُكم ومن الانتفاع من متع الدنيا، فإن أمانيها المكبوتة تؤثر على نفسها تأثيرًا معينًا، وإن لم تستطع هذه الشعوب أن تقول بلسانها إنها تتأثر من ظروفها وبيئتها. إنها تفكر أنها تعيش منذ قرون وأجيال ولكن الدنيا لم تمنحها أي حق، بل سلبت حقوقها وثرواتها وخيراتها، وحرمتها من التعلم والثقافة، فحان الأوان لتثور على العالم وتستولي عليه وتسترد منه كل حق. هذه هي المشاعر التي تتولد في الأمم المحرومة بحكم الأوضاع التي تعيش فيها، وهذه هي المشاعر التي تجعلها غالبة على الآخرين. لقد بُعث عيسى عليه السلام في أمة متحضرة مثقفة قد أخذت نصيبها من الرقي المادي، ولذلك استغرق كفاحه هو وحوارييه من أجل الرقي ثلاثة قرون. أما موسى عليه السلام فقد بُعث في أمة مقهورة محرومة من الرقي وكانت ترى أن الأمم الأخرى قد سبقتها في سباق التقدم والرقي وأنها لا تزال في الخلف، فاجتمعت حول موسى عليه السلام فورًا عندما رفع نداءه، إذ كانت فطرة هؤلاء القوم تصرخ من داخلها أنه قد حان الآن وقت رقيهم، ولما اجتمع صوت فطرتهم مع النداء الإلهي أصبحوا غالبين على الناس واستردّوا منهم حقوقهم بالقوة.

هذه السنة الأزلية التي قد أشار الله تعالى إليها في هذه الآية مبيّنًا أنه تعالى عندما يحدث الثورة الروحانية على يد الأنبياء يشاهد العالم عندها أيضًا صدق قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾.. حيث يصبح كثير من الكبراء وأهل الدهاء أذلّةً صاغرين، وينال الكثير من الأمم والأفراد العزَّ والإكرام بعد أن كانوا يُعَدّون مهانين أذلّين. كان أبو جهل يحظى باحترام كبير حتى اعتبره قومه داهيةً وسمّوه أبا الحكم، ولكنه لما عادى النبي ﷺ أصبح من الأذلّين حتى سُمّي أبا جهل. وعلى النقيض كان عليٌّ رضي الله عنه لا يزال طفلاً في الحادية عشرة من عمره فقط حين قام لنصرة الدين، فأعزّه الله وأكرمه حتى جعله خليفة لنبيه ﷺ، ثم جعل نسله أيضًا من الصلحاء الأتقياء حتى كان في ذريته اثنا عشر إمامًا على التوالي. ولكن الذين كانوا يرون

عندها أنهم رؤساء مكة وأنهم ذوو سؤدد وشرف فلا تجد اليوم أحدًا يذكر اسمهم بخير أو ينظر إليهم باحترام.

إذًا، فكما أن القانون الإلهي ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ جارٍ في المُلك المادي فإنه جار في العالم الروحاني أيضًا، حيث يجعل الله تعالى عند بعثة كل نبي كثيرًا من الكبار صغارًا وكثيرًا من الصغار كبارًا ويكتب لهم العزة والشرف.

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٧﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

قِبَلَ: القِبَلُ: الطاقة، يقال: ما لي به قِبل. (الأقرب)

صاغرون: الصاغر: المُهان والراضي بالذل والضيم. (الأقرب)

التفسير: لما فرغ حاشية ملكة "سبأ" من تقديم مشورتهم لها قالت: لقد ارتأيتُ بعد دراسة الأمور كلها أن أُرسل إلى سليمان هدية وأنتظر الجواب الذي يردّ به على رجالي. فسلّمت الهديةَ إلى الهدهد. فلما رأى سليمان عليه السلام هديتها قال إن هؤلاء القوم يريدون أن يمدّوني بمال.

ويمكن للقراء الأفاضل تصوُّر الهدية الكريمة التي حملها طير الهدهد في منقاره. فإن الهدهد ربما لم يستطع أن يأخذ في منقاره عُشر الجنيه الواحد، فكيف، يا تُرى، أيقن برؤية هذه الهدية الحقيرة أن الملكة قد ﴿أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾؟

على أية حال، فلما وضعها أمام سليمان ﷺ قال ما هذا الشيء الحقير الذي جئت به؟ فإن ما آتاني الله خير مما عندهم. ولا يمكن أن يفرح بهذه الهدية إلا أُناس أذلاء مثلهم! ثم قال للهدهد ارجِعْ إليهم، فالآن سنأتيهم بجنود لا طاقة لهم بمواجهتها - ولا تنس أن هذا الجيش قوامه الهداهد والعصافير الصغيرة منها والكبيرة - وسأطرد أهل سبأ من بلدهم مهانين صاغرين، وسيعيشون تحت سيطرة هذا الجيش في خزي طويل. علمًا أن ﴿صاغرون﴾ اسم فاعل وفيه معنى الدوام.

لقد غضب سليمان ﷺ لأن الملوك كانوا يسترضون الملوك الأقوياء بتقديم الهدايا والأموال لهم كرشوة. فلما وصلت هدايا الملكة "بِلقيس" إلى سليمان ظن أنها تعتبره من الملوك الفاسدين المرتشين، فاستنكر فعلتها.

والحق أن ما فعلته ملكة سبأ يُماثل ما فعل كسرى مع المسلمين، إذ ورد في التاريخ أن المسلمين لما هاجموا بلاده قال كسرى لحاشيته: لا أُصدق أن العرب يمكن أن يشنوا الغارة على مُلكي، فإنهم أحقر شأنًا من ذلك؟ ابعثوا إلى قائدهم أن يأتي لزيارتي. فذهب رسوله برسالته إلى قائد المسلمين، فبعث إليه القائدُ المسلم أحد الصحابة مع كتيبة صغيرة. ودخل هؤلاء الصحابة في بلاطه متكئين على الرماح فوق السجادات الغالية المفروشة، فازداد الملك غضبًا وقال للصحابي: كيف تجاسرتم على الهجوم على بلدي، وأنتم أمة ذليلة حقيرة تأكلون الضب وتنكحون الأمهات؟ وها إني أعطي كلَّ ضابط منكم دينارين وكل جندي دينارًا، فخذوها وارجعوا أدراجكم، ولا تفكروا في الهجوم على مملكتي ثانية. فأجابه الصحابي: أيها الملك، قد صدقتَ فيما قلت، كنا قومًا يأكلون الضب وينكحون الأمهات، أما الآن فقد تغير الوضع، فإن الله تعالى قد بعث فينا رسوله الذي غيّرنا رأسًا على عقب، وبيّن لنا الحلال والحرام. واعلم أيها الملك، أنه قد ولّى الزمان الذي كان الناس يعطوننا بعض الأموال رشوة ليُملوا علينا أوامرهم، فإننا لن نبرح حتى نفتح بلادك. فقال الملك: سأعاقبك على جرأتك هذه. ثم أمر بعض جنوده بإحضار عِدلٍ مليء بالتراب، فلما أتى به قال الملك للقائد المسلم: تعال واخفِضْ رأسك. ففعل، فوضع الملك العِدْل على ظهره وقال: اخرُجْ الآن من

عندي فلن أعطيك أكثر من ذلك. فحمل الصحابي التراب وخرج بسرعة من بلاطه وركب حصانه قائلاً لأصحابه: تعالوا نرجع الآن، فإن ملك الفُرس قد سلّم إلينا بيده أرض بلده. ثم ركبوا جيادهم وطاروا عليها إلى الجيش المسلم. وبما أن المشرك يتوهم كثيرًا، فإن الملك لما بلغه قول القائد المسلم أمر رجاله بالخروج وراءهم بسرعة واسترداد عدل التراب منه إذ من الشؤم الكبير أن يضع الملك بيده تراب أرضه بيد العدو. فخرجوا وراء الوفد المسلم، ولكنهم كانوا قد ذهبوا بعيدًا.
(البداية والنهاية: المجلد السابع غزوة القادسية)

كذلك حاولت ملكة سبأ استرضاء سليمان عليه السلام بالهدايا لتَثنيه عن الهجوم، ولكنه رفض هداياها إذ لم تكن إلا نوعًا من الرشوة.

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ
أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ ٱلَّذِى
عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ
طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى
لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤١﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ
أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

عِفريت: العفريت: النافذ في الأمر المُبالِغُ فيه مع دهاء؛ الخبيث المنكر. (الأقرب)

التفسير: ثم قال سليمان عليه السلام لرجاله يا أيها الملأ مَن منكم يأتيني بعرش الملكة قبل أن يأتوني مطيعين؟ فقال رئيس من فرقة الحرس الخاص: سآتيك بعرشها قبل أن تخرج للهجوم عليهم. لقد كان أحد قادة الجيش فكان يعلم المدة التي سيقيم فيها الجيش في ذلك المكان، ففكر في نفسه أنه سيرعب الملكة ويأتي بعرشها في تلك المدة، وأضاف أنه ذو قوة ولا يقدر جيش الملكة الصغير على مقاومته. ثم إنه مطيع له فلن يخون عند نقل هذه الثروة إليه.

فنهض شخص آخر عنده علِمُ الدين وقال لسليمان: سآتيك بعرشها ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. وكان الخليفة الأول رضي الله عنه يقول إن من معاني الطرف الخراج، أما أنا فلم أعثر على هذا المعنى حتى الآن؛ فلذا ما لم أجده سأفسر هذه الجملة بمعناها المعروف وهو: السرعة، حيث يقول الرجل إذا أراد التعبير عن فعل شيء بسرعة: سأقوم به بلمح البصر. وعليه فالمراد أن ذلك العالم اليهودي وعد سليمان عليه السلام بإحضار عرش الملكة قبل أن يُحضره الشخص الآخر الذي كان رئيسًا يهوديًا أو أدوميًا أو عربيًا.. وكان يعني أنه سيصنع عرشًا جديدًا فخمًا مثل عرش الملكة ويُحضره إلى سليمان عليه السلام بسرعة. ذلك لأن البلد بلد اليهود، فكان هذا العالم اليهودي موقنًا أنه سيصنع العرش بسرعة بمساعدة الحِرفيين اليهود، فوعد بإحضاره قبل أن يُحضره هذا العفريت. فلما جيء سليمان عليه السلام بالعرش ورآه قال: إن هذا من فضل ربي.. أي أنه تعالى أعطاني مسؤولين نشيطين أذكياء وحقق لي كل ما أتمناه، لينظر أأكون عبدًا شاكرًا له أم ناكرًا لنعمه؟ وحيث أعلن القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾(الآية١٠٣)، موضحًا أن سليمان عليه السلام أصبح بهذه النعم عبدًا شاكرًا لله تعالى لا كافرًا به.

ثم قال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.. أي أن الشكر ينفع الإنسان نفسه وأن الكفر لا يضر الله شيئًا لأنه تعالى كامل في ذاته ولا يحتاج إلى أحد.

وبعد أن أعرب سليمان الَلَيْكِلاً عن مشاعر شكره لله تعالى عاد إلى الموضوع الأساس وقال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذينَ لا يَهْتَدُونَ﴾.. أي لا بأس بهذا العرش، ولكني أريد أن يكون أروع من هذا أيضًا حتى يبدو عرش الملكة أمامه نكرةً أي حقيرًا، لأني أريد أن أرى ما إذا كانت تعترف بأن الله تعالى أكثر نعمةً عليّ أم أنها تظل مغرورة بما عندها.

فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٤﴾

التفسير: لما جاءت الملكة قيل لها أعرشك كمثل عرش ملكنا؟ فأخذتها العزة فلم تعترف بفضله بل قالت: كأنه مثل عرشي. ثم قالت ولا داعي لمثل هذه الأمور فإننا قد سمعنا عن دين سليمان وعلمنا أنه على الحق وقد دخلنا في طاعته.

وعندها أراد سليمان أن يمنعها من عبادة ما سوى الله تعالى، فقام بوعظها إذ كانت من قوم كافرين.

قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةً وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

شرح الكلمات:

الصرح: القصر؛ كلُّ بناء عالٍ. (الأقرب)

لُجّة: اللجّة: معظمُ الماء؛ المِرآةُ؛ الفضّةُ. (الأقرب)

مُمرَّد: مرَّد البناءَ: ملَّسَه وسوّاه. (الأقرب)

قوارير: جمعُ قارورة: الزجاج. (الأقرب)

فالمراد من قوله تعالى: ﴿مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ مصنوع من الزجاج.

التفسير: يقول المفسرون أن سليمان عليه السلام كان يريد الزواج من الملكة بلقيس، ولكن الجن أخبروه أن ساقها مغطاة بالشعر كالماعز، فأراد تحري الأمر، فبنى قصرًا في فنائه حوضٌ كبيرٌ مفروشٌ سطحه بالزجاج يجري فيه الماء فينخدع الرائي ويظن أن الماء يجري في أرضية الفناء. فدعا الملكةَ للإقامة في القصر، فلما مرّت في الفناء ظنت أن فيه ماءً يجري، فرفعت ثيابها فزعًا، فانكشفت ساقها، فعلم سليمان عليه السلام أنها مغطاة بالشعر فعلاً، فأمر بإعداد النورة لإزالة شعرها. (ابن كثير)

ويقول البعض أن سليمان عليه السلام لم يبنِ القصر الممرد بالقوارير ليرى شعر ساقها، وإنما الواقع أنه وجد في إحضار عرشها إساءةً له، فأمر ببناء القصر إظهارًا لعظمته.

ولكن هل من عاقل في الدنيا يقول أن هذه الأمور تبلغ من الأهمية بحيث يذكرها الله تعالى في وحيه الذي هو آخر شريعة للإنسانية. الحق أن هذه الأفعال التافهة لا تمتّ إلى الدين ولا إلى المعرفة بصلة، كما أن أنبياء الله تعالى لا يأتونها. كل ما في الأمر أن ملكة سبأ كانت مشركة تعبد الشمس، وأراد سليمان عليه السلام منعها من الشرك، فقام بنصحها بالكلام أولاً، ثم أراد كشف خطأ عقيدتها عليها بشكل عملي، فأمر بإقامتها في قصر أرضيته زجاجية يجري تحتها الماء، فلما همت بالمرور عليها ظنتها ماءً فرفعت ثيابها عن ساقيها بسرعة، أو المعنى أنها خافت خوفًا شديدًا- لأن الكشف عن الساق يعطي كلا المفهومين - فهدّأ سليمان عليه السلام من روعها وقال: لا تنخدعي فإن ما تظنينه ماءً إنما هو أرضية زجاجية يجري من تحتها الماء. لقد كشف عليها سليمان بطلان الشرك بالأدلة من قبل، فأوضح لها الآن حقيقته بمثال عملي وبيّن أنها كما رأت الماء من خلال الزجاج وظنته ماءً كذلك فإن نور الله هو الذي يتجلى في الأجرام السماوية. فاقتنعت بهذا الدليل وقالت من

فورها: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. أي يا رب لقد ظلمت نفسي بالشرك، وها إني أؤمن مع سليمان، أي بحسب دينه، بالله الذي هو رب العالمين، والذي تستفيض الشمس والقمر من فيوضه.

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٧﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

اِطَّيَّرْنا: تطيّرَ بالشيء ومنه: تَشاءمَ، ويقال: اطَّيَّرَ أيضًا بالقلب والإدغام (الأقرب)

طائركم: كل ذي جناح من الحيوان. وبما أن العرب كانوا يتشاءمون فأطلقوا الطير على ما تيمّنوا به، فيقولون: "سِرْ على الطائر الميمون" دعاء للمسافر. ويقولون أيضًا: "هو ميمون الطائر" أي مباركُ الطلعة. والطائر أيضًا: عمل الإنسان الذي قُلِّدَه وطار عنه من خير أو شر. الطائر أيضًا: كوكب إذ كانوا يتشاءمون أو يتيامنون به. (الأقرب)

تُفْتَنون: فُتِنَ الرجل في دينه: مالَ عنه، وفُتِنَ فلان: أصابته فتنةٌ فذهب ماله أو عقله. (الأقرب)

التفسير: بعد ذكر واقعة سليمان عليه السلام تحدث الله هنا عن ثمود. كان هؤلاء القوم قد خلوا قبل موسى عليه السلام بزمن قريب، ولكن الله تعالى قد ذكرهم بعد ذكر سليمان مباشرة لأن الكثير من بلادهم خضعت لحكمه عليه السلام. علمًا أن القرآن

الكريم ليس مصدرًا تاريخيًا حتى يذكر الأحداث بحسب التاريخ، إنما هو كتاب الدين والحضارة، فيذكر أحداث الأمم من هذا المنظور. وقد ذكر ثمود بعد ذكر سليمان ﷺ مع أنهم قد خلوا قبل زمنه لأن الأمة اليهودية قد أثرت فيهم ولأن بلادهم خضعت لسليمان ودخل أهلها في طاعته. والحق أن الجن المذكورين في قصة سليمان ﷺ هم من نسل ثمود، وقد سُمّوا جنًا لكونهم أجانب، وقد ذكرهم الله تعالى هنا بعد اليهود لكونهم ذوي صلة باليهود ولخضوعهم لحكمهم.

يخبر الله تعالى هنا أن نبيه صالحًا ﷺ دعا قومه ثمود إلى التوحيد، فأخذوا يجادلونه مثيرين الفتنة، بدلاً من أن يلبوا نداءه، إذ صاروا فريقين: فريق آمن به وفريق كفر.

الواقع أن ثمود خلفوا عادًا (الأعراف:٧٥). لقد أتى هؤلاء من جنوب الجزيرة العربية وانتشروا في جميع مناطقها الشمالية، فصارت لهم صلات بالأمم المؤمنة بالتوحيد. فقد كتب أبو إسماعيل مؤلف "فتوح الشام" أن ثمود كانوا منتشرين من بُصرى - وهي مدينة سورية - إلى "عدن" التي كانت عاصمتهم. لما اضطروا للهجرة في زمن قوة قوم حِميَر وقوم "سبأ" خرجوا من جنوب الجزيرة إلى شمالها، فأتوا أوّلاً إلى الحجاز ثم تهامة ثم الحِجر (أرض القرآن ص ١٨٨). فمن كان منهم متأثرًا بعقيدة التوحيد آمن بصالح ﷺ، أما الذين كانوا بعيدين عن عقيدة التوحيد فعارضوه معارضة شديدة. فلما نصحهم صالح ﷺ لم يتعظوا بل قالوا يا صالح إننا نتشاءم منك، ونرى أن هذه الفُرقة الحاصلة بين القوم بسبب تعاليمك ستؤدي بنا إلى الدمار. لم يدرك هؤلاء الجاهلون أن صالحًا إنما جاء ليُحييهم وليُخرجهم من الحضيض إلى القمة، بل لما رأى المعارضون أن تعليم صالح قد جعل القوم مختلفين، وأن بعضهم قد بدأ يشعر بالفعل أنهم يسلكون طريقًا خاطئًا ولا بد لهم من إصلاح أحوالهم والانتهاء عن سوء أعمالهم، فأخذوا يقولون له لم يحدث هذا الخلاف والفرقة بين القوم إلا بسبب نحوستك، فلولاك لم يتشتت شملنا. مع أن الواقع أن الموتى لا يقدرون على إحداث أي انقلاب في الدنيا وإن كانوا مئات الآلاف، إنما تقع الثورة بواسطة الأحياء مهما كان عددهم قليلاً. كان قوم ثمود أمواتًا قبل بعثة

صالح عليه السلام فأراد الله تعالى إصلاحهم على يد نبيه، ولكنهم عوضًا عن أن يشكروا الله تعالى على ذلك أخذوا يقولون لنبيهم: ويلك قد فرّقتَ شمل القوم وقضيت على وحدهم. وذلك كما حصل مع النبي ﷺ أيضًا، حيث بعثه الله تعالى لإقامة وحدانيته في العالم ولكن الكافرين اتهموه بأنه قد شتت شمل القوم وقضى على وحدهم. بل إن الكافرين قد جاؤوا أبا طالب مرة وطالبوه بنصح ابن أخيه لكي يمتنع عن نشر عقيدة التوحيد. كذلك فعل المعارضون في زمن صالح، فلما رأوه يدعو القوم إلى التوحيد تميزوا من الغيظ واعتبروه نحسًا وشؤمًا عليهم، ولكن صالحًا عليه السلام لم يمتنع عن تبليغ رسالة الإله الواحد بسبب قولهم، كما أن النبي ﷺ لم ينته عن نشر عقيدة التوحيد؛ فعادت الحياة إلى العرب الذين كانوا أمواتًا روحانيًا (السيرة النبوية: مباداة رسول الله ﷺ قومه). ما هو الفرق بين الحي والميت، يا ترى؟ إنما هو أن الميت يفقد الحس والشعور؛ فلو سبَّ المرء أعزَّ أعزّته أو قتله لم يحرك ساكنًا للدفاع عنه، بل لم يشعر بهذا الظلم مطلقًا. ولكن الإنسان الحي يعرف نفعه من ضره، ويسعى للدفاع عن حقوق الآخرين أيضًا. ونفس الحال بالنسبة للذين يموتون روحانيًا، فيرتكب الناس أمامهم الفظائع والمنكرات، فيكذبون ويخدعون ويغشّون ويظلمون، ولكن هؤلاء لا يبالون بهذه المنكرات. وعندما يأتي نبي من عند الله سبحانه وتعالى يقول للناس إذا رأيتم أحدًا يكذب فامنعوه من الكذب، وإذا رأيتم أحدًا يظلم صاحبه فانهوه عن الظلم. بل لقد قال نبينا ﷺ أن من علامة المؤمن أنه إذا رأى منكرًا غيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، أي يستنكره في قلبه (مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان). ولكن الموتى الروحانيين لا يتصفون بأي من هذه الخصال، إذ يرون الناس يقعون في الظلم والكذب أمام أعينهم ولكنهم لا يزيلونه بيدهم ولا بلسانهم ولا بقلوبهم. لا شك أنهم يستنكرون هذه المنكرات بلسانهم أحيانًا ولكنهم يفعلون ذلك رياءً بدون أن تظهر على وجوههم أية آثار للغيرة الإيمانية. أما علامة الإنسان الحي فهي أنه يتحلى بإحدى هذه الخصال الثلاث حتمًا، فإما أنه يزيل المنكر بيده أو بلسانه أو يستنكره في قلبه على الأقل.

وإن أفضل مثال لذلك هو ما فعل عثمان بن مظعون ﷺ الذي كان قد أسلم وهو في مقتبل شبابه. ولما أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى بلاد الحبشة، أراد عثمان الهجرة، فقال له رئيس من مكة: كان أبوك صديقًا لي وكان يعتبرني أخًا له، فإذا كنت تهاجر خوفًا من أذى الناس فها إني أعلن بين أهل مكة أني أجير عثمان في جواري من اليوم، فلن يتعرض لك أحد بأذى. فرضي عثمان ﷺ بعرضه، وأعلن الرئيس بحسب عادة العرب بأن عثمان في ذمته. فامتنع الناس عن إيذائه، فأخذ يمشي بين الناس بحرية تامة. ولكنه لما رأى إخوانه المسلمين الآخرين لا يزالون هدفًا للتعذيب بيد أهل مكة ثارت غيرته الإيمانية فقال لنفسه: كيف تمشي بين الناس في حرية وإخوانك في الإسلام عرضة لإيذائهم؟ فذهب ﷺ إلى ذلك الرئيس وقال له: خُذْ ذمتك عني فإني لا أرضى بأن أمشي بين الناس بحرية وإخواني لا يزالون هدفًا لتعذيب القوم. فقال له الرئيس لا ترد عليّ جواري، ولكنه لم يرضَ بذمته، فأعلن الرئيس مضطرًا بأن عثمان لم يعُدْ في ذمته منذ اليوم. وبعد أيام قامت سوق عكاظ، وحضر عثمان مجلسًا كان الشاعر الشهير لبيد يُنشد فيه شعره بين أعيان مكة ورؤسائها الذين كانوا يكيلون له المدح والثناء. وبينما هم في ذلك إذ أنشد لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطلُ

أي أن كل شيء باطل وفان سوى الله تعالى. فلما سمعه عثمان بن مظعون ﷺ قال بصوتٍ عالٍ: قد صدقتَ وأَصبتَ، إذ كل شيء فان إلا الله فعلاً. وكان عثمان أصغر سنًا من لَبيد بكثير إذ كان عمر لبيد عندها ثمانين سنة وقد مات بعد أن تجاوز مئة وعشرين سنة، وكان يعتبر نفسه من فحول الشعراء العرب، فتحرّجَ من شاب عمره ثمانية عشر سنة يُثني على شعره، فتوجه إلى رؤساء مكة قائلا: لماذا يثني عليّ هذا الولد؟ متى حدث فيكم هذا فلا تحترمون شعراءكم؟ فأخذ الناس يلومون عثمان بن مظعون ويقولون: لا تتكلم في حضرة الكبار، اسمع الشعر صامتًا. فاستأنف لبيد إنشاد الشعر وقرأ الشطر الثاني من البيت وقال:

وكلُّ نعيم لا مَحالةَ زائلُ

فلم يتمالك عثمان ﷺ نفسه وقال: هذا كلام فاسد وباطل، إذ لا زوال لنعيم الجنة. فلم يتحمل لبيد نقده خاصة وأنه كان متضايقًا من قبل أيضًا، فقال: لن أنشد شعري بعد اليوم في قوم أمثالكم. فثار القوم ولَكَمَ أحدهم عثمان بقوة وفقَأ عينه. وكان الرئيس الذي منح عثمانَ الأمان من قبل حاضرًا في المجلس، ولكنه لم يستطع الدفاع عن عثمان علنًا خوفًا من رؤساء القوم، فأخذ يلومه كما تلوم الخادمة ولدها إذا ما تشاجر مع ابن سيدها، فقال له غاضبًا: ألم أقل لك أن لا تخرج عن ذمتي، هل رأيت نتيجة ذلك؟ فأجابه عثمان بن مظعون: إذا كانت إحدى عيني قد ضاعت فلا ضير، فوالله إن عيني الأخرى أيضًا لتتلهف أن تُفقأ في سبيل الله تعالى.*

هذه هي الحياة التي نفخها الرسول ﷺ في صحابته، فجعلهم من الخالدين.

وعلى النقيض كان أبو جهل يرى الناس يرتكبون أمامه أنواع المنكرات ولكنه كان يسكت عليها ويضحك. ولم يسكت أبو جهل على المنكرات إلا لأنه كان ميتًا، ولم يستنكر الصحابة تلك المعاصي إلا لأنهم كانوا أحياءً.

ومن البراهين الدالة على الحياة التي نفخها النبي ﷺ في صحابته أنه برغم أن مكة قد وُضع أساسها منذ قديم الزمان على يد إبراهيم الطّيّلا، إلا أن أهلها لم يخرجوا عن الجزيرة العربية شأن ثور الرحى الذي لا يبرح يدور حولها فقط. ولكن عندما نفخ النبي ﷺ في الصحابة - الذين كانوا أولاد ذلك القوم الذين لم يستطيعوا منذ زمن إبراهيم إلى زمن الرسول ﷺ، أي ما يقارب خمس مئة وألفي سنة، إحراز أي تقدم ولا رقي، بل ظلوا يطوفون في الجزيرة العربية كثور الرحى - روحًا جديدة، حيث خرجوا من الجزيرة العربية، ووصلوا إلى الصين وإسبانيا وصقلية وإيطاليا وإفريقيا وحتى حدود روسيا، ولم يمض نصف قرن حتى سيطروا على العالم كله. هذه هي الحياة التي نالوها ببركة النبي ﷺ، وهذه هي الحياة التي أتى الأنبياء كلهم

* لقد ورد هذا الحادث في السيرة النبوية لابن هشام مع بعض الاختلاف. (المترجم)

حاملين كؤوسها ليشربها الموتى الروحانيون منذ عشرات القرون، فيحيوا بها ثانية. ولكن بما أن الأنبياء يأتون بنظام جديد، وكل نظام يكون مصحوبًا بانقلاب، فإن أعداء الحياة الروحانية ينبرون لمعارضتهم معتبرين إياهم سبب كل شؤم ونحس. وقد رأينا ذلك في هذا العصر أيضًا، وذلك أنه عندما أخذ الناس يموتون بكثرة نتيجة مرض الطاعون والزلازل بحسب ما أنبأ به مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية العَلَيْهِلاَ، فلا شك أن فريقًا منهم اهتدى بسببها، ولكن فريقًا منهم أخذوا يقولون إن كل هذه الأوبئة والبلايا والكوارث إنما هي بسبب نحس المرزا وشؤمه! فلو لم يدّع النبوة بعد محمد ﷺ لما نزل هذا العذاب على الدنيا.

وهذا ما فعل أعداء صالح العَلَيْهِلاَ أيضًا إذ قالوا له: إن كل البلايا إنما تنــزل بسبب شؤمك ونحسك. فأجابهم صالح العَلَيْهِلاَ: إنما نحسكم وشؤمكم بيد الله تعالى، وإذا تحديتم عذابه فسيعاقبكم به حتمًا، أما إذا سألتم فضله فسيُنــزله عليكم أيضًا. ولكني أخاف عليكم عذابه لأنكم قد تركتم الدين الحق.

وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ
﴿٥٠﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٢﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥٣ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٤

شرح الكلمات:

رَهْط: الرهط: قومُ الرجل وقبيلته؛ وعددٌ يجمع من الثلاثة إلى العشرة وليس فيهم امرأة. (الأقرب)

لَنُبيِّتَنَّه: بيَّت الأمرَ: عمِله أو دبّره ليلاً. (الأقرب)

دمَّرنا: دمّرهم وعليهم: أهلكَهم. (الأقرب)

خاوية: خوَتِ الدارُ: سقَطتْ وتهدّمتْ. وخَوِيت الدارُ: خلَتْ مِن أهلها. (الأقرب)

التفسير: وكان في المدينة التي بعث الله فيها صالحًا عليه السلام تسعةٌ من أئمة الكفر، وكانوا يفسدون في الأرض ليلاً ونهارًا جاهدين لكي يُفشلوا صالحًا عليه السلام في إشاعة توحيد الله تعالى. ولو أنهم استغلّوا مكانتهم المرموقة في أعمال الخير وهداية الناس لازدادوا عزًّا وشرفًا، ولكنهم سلكوا طريق الهلاك والدمار. فتشاوروا فيما بينهم وقالوا تعالوا نحلف بالله أنّا سنُغير على صالح وأهله بالليل ونقتلهم جميعًا، وإذا جاء ورثته يطالبون بدمه نقول لهم لم نشهد قتلهم وإنا لصادقون. يقول الله تعالى: لقد نسجوا هذا الخطة لقتل صالح عليه السلام ولكنهم نسوا أن هناك إلهًا في السماء يحفظ نبيَّه. فمكروا مكرهم، ومكر الله مكرًا ضدهم دون أن ينتبهوا لمكرنا، فظنوا مغترّين بمكرهم أنهم سينجحون في قتل صالح، ولم يدروا أن ملك السماء غالب على مكرهم. وبالفعل ترون أنّا أهلكنا أولئك التسعة وقومهم صغارًا وكبارًا كلهم، سواءً الذين كانوا متورطين في مؤامرة قتله أو الذين كانوا متعاطفين معهم، وجعلناهم هدفًا للعذاب ودمرناهم أجمعين، فترون ديارهم خربة وبيوتهم متهدمة لا يسكنها أحد، بل أصبحت عبرة لمن يعتبر، وآية عظيمة لقوم يعقلون. أما الذين

آمنوا بصالح وعاشوا بالصلاح والورع فأنجيناهم من العذاب وأمددناهم بأسباب الرقي والتقدم.

أما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ هنا فهو تحذير بأن التسعة من ثمود كما خططوا لقتل صالح، كذلك سيتآمر تسعة من أئمة الكفر على محمد ﷺ أيضًا، فيقرّرون أن يقتله فتيان من جميع القبائل معًا. ولكن الله تعالى كما خيّب أعداء صالح في خطّتهم كذلك سيُحبط خطة أئمة الكفر ضد محمد ﷺ. وكما أنه تعالى نجّى صالحًا عليه السلام والذين آمنوا معه من العذاب، وأخذهم إلى مكان محفوظ، كذلك سيُخرج اللهُ النبي ﷺ وأصحابه من بين الأعداء ويذهب بهم إلى المدينة حيث يفتح عليهم أبواب النجاح والانتصار.

وكل من هو مُلمّ بالتاريخ يعلم جيدًا كيف تحققت هذه النبوءة القرآنية حرفيًا. فكما كان في زمن صالح عليه السلام تسعة هم رأس الفساد، كذلك كان في زمن النبي ﷺ تسعة من أئمة الكفر وهم: أبو جهل الذي كان أهل مكة يسمونه أبا الحكم وكان رأس المفسدين المعاندين، وأبو لهب، وأمية بن خلف، والنضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعتبة، وشيبة. فأما أبو جهل وأمية وعقبة بن أبي معيط وعتبة وشيبة فكل هؤلاء الخمسة قُتلوا يوم بدر. وأما النضر بن الحارث فأُسر يوم بدر ثم قُتل على جرائمه. وأما الوليد بن المغيرة فأصابه سهم في قدمه فهلك به بعد الهجرة بثلاثة أشهر. أما العاص بن وائل فمات بعد الهجرة بشهرين بعد أن انتفخت رجله فجأة. وأما أبو لهب فمرض بعد غزوة بدر بقليل ومات. (البخاري: كتاب المغازي، باب دعاء النبي ﷺ على كفار قريش، والسيرة لابن هشام: غزوة بدر الكبرى، وكفاية الله أمر المستهزئين، وذكر رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب)

لم يدّخر هؤلاء الرؤساء التسعة من قريش وسعًا في إيذاء النبي ﷺ وإفشاله في مهمته. وليس هذا فحسب بل اجتمعوا في دار الندوة وأشاروا على القوم بوضع خطة للقضاء على الإسلام إلى الأبد. فاقترح أبو جهل أن تختار كل قبيلة فتى منها فيذهب هؤلاء الفتيان بسيوفهم ويقتلوا محمدًا بالليل، إذ لن يتجاسر بنو عبد مناف على حرب كل القبائل التي يشارك فتيانها في قتله، وإذا طالبوا بالدية نعطيهم إياها.

ففرح الجميع بهذا الاقتراح وظنوا أن نجاحهم مضمون، ولكن الله الذي قد حفظ صالحًا ﵇ وأتباعه المخلصين من مكر أعدائه، قد كاد كيدًا لنجاة محمد ﷺ من مؤامرتهم. فما إن خرجوا من ندوتهم بعد حبك المؤامرة حتى أخبر الله تعالى بها نبيه، وأذن له بالهجرة (السيرة لابن هشام: هجرة الرسول ﷺ). والحق أن الهجرة كانت أساسًا لغلبة الإسلام، حيث أدت إلى نـــزول ذلك العذاب الحاسم على أهل مكة الذي قصم ظهورهم؛ أعني حرب بدر.

ثم نـــزل عليهم العذاب الثاني لدى فتح مكة حين دخلها النبي ﷺ مع عشرة آلاف من الأبرار. الحق أن العذاب الذي حل بأهل مكة كان مؤلمًا جدًا، ذلك أن رؤساءها كانوا يحظون بعزة واحترام كبيرين حتى هاب الناس الحديث معهم. كما كانت لهم أيادٍ ومنن كثيرة على الناس؛ فما كانوا يرفعون بصرهم إليهم، والحادث التالي خير شاهد على ذلك:

عند صلح الحديبية بعث أهل مكة أحد رؤسائهم للتفاوض مع النبي ﷺ، وبينما هو يحاوره لمس لحيته ﷺ، فأبعد صحابي بقبضة سيفه يد الرئيس عن لحيته قائلا: لا تلمس بيدك النجسة لحيته المباركة. فرفع بصره ليرى الذي ضرب يده بقبضة سيفه، فلم يرَ منه إلا عينه إذ كان الصحابة لابسين دروعهم، فبعد أن صوّب بصره في وجه الصحابي قال: أأنت فلان؟ قال: نعم. قال: أنسيت إذ نجيتك وأهلك من محنة كيت، وأحسنت إليك في مناسبة كيت؟ لا شك أن نكران الجميل ظاهرة شائعة في هذا العصر بحيث لو أحسنت إلى أحد في الصباح نسيه في المساء، ولو أحسنت إليه في المساء نسيه في الصباح، ولقال لك: هل تريد أن أصبح عبدًا لك طوال الحياة لأنك قد أحسنتَ إلي؟ فينسى صنيعك الذي فعلت به البارحة، دعك أن يتذكر أياديك التي أسديتها إليه طول الحياة. ولكن العرب كانوا شديدي الشكر لمن يحسن إليهم، فلما ذكّر الرئيس ذلك الصحابيَّ بأياديه عليه خجل وانسحب إلى الوراء رغم خطورة الموقف. فاستأنف الرئيس حديثه مع النبي ﷺ ثانية وقال: إني أبو العرب وأرجوك أن ترضى بما يقول قومك من قريش، أما هؤلاء الذين اجتمعوا حولك فإنما هم أحابيش وسيخذلونك عند المصيبة ولن ينفعك إلا قومك، فلا

تُذلّهم. ثم لمس لحية النبي ﷺ مرة أخرى متوسلاً إليه. فلم يملك الصحابة أنفسهم إذ رأوا فيه نوعًا من الاحتقار، فضرب أحدهم على يد الرئيس وقال: لا تمدّ يدك النجسة إلى لحيته المباركة. فرفع بصره ليرى الذي يمنعه. فلما عرفه خفض بصره وقال: فأنت أبو بكر، وليس لي منة في عنقك. (البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، والسيرة لابن هشام: أمر الحديبية)

إذًا فكان لهؤلاء الرؤساء أياد كثيرة عند الناس، إذ كان لهذا الرئيس أيادٍ في عنق كل أنصاري ومهاجر إلا أبا بكر، ولذلك لم يجرؤ أحد سواه على إبعاد يده عن النبي ﷺ. ولكن الوضع قد انقلب بعد ذلك تمامًا، فإن كل هؤلاء الرؤساء ذوي العزة والهيبة والمنن والأيادي عند الناس عُرضوا أمام النبي ﷺ يوم الفتح مطأطئي الرؤوس نادمين، فسألهم: هل تعرفون ما أنا فاعل بكم؟ فقالوا: نرجو أن تفعل بنا ما فعل يوسف بإخوته. (السيرة لابن هشام: ذكر الأسباب الموجبة للمسير)

إذًا فكما كانت هجرة صالح عليه السلام مباركة له ولأصحابه كذلك كانت الهجرة التي اضطر لها النبي ﷺ وأصحابه فاتحة خير عظيم وفتوحات كبيرة، حيث خرج الإسلام من مكة وانتشر بين الجزيرة العربية كلها ثم في العالم كله. بينما انقرض مشركو مكة و لم يبقَ لهم أثر.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ
﴿٥٥﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴿٥٦﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟
أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٧﴾

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

الغابرين: الغابر: الباقي. والغِبْر: الحقد. (الأقرب)

التفسير: بعد الحديث عن هلاك ثمود يذكر الله تعالى قصة قوم لوط. والواقع أن لوطًا قد خلا قبل زمن سليمان بمدة طويلة، إذ كان سليمان من نسل موسى الذي كان من نسل إبراهيم الذي كان لوط ابن عمه - عليهم السلام.

وقد ذكر الله هنا واقعة لوط عليه السلام لأنها تشبه واقعة صالح عليه السلام، فكما خطط قوم صالح لاغتياله ليلاً، كذلك جاء قوم لوط أيضا ليلاً ليخرجوه من بيته ويهينوه أمام ضيوفه.

والحق أن القرآن الكريم لم يذكر هذه الأحداث إلا كنبوءة بأن هذا سيحدث بالنبي ﷺ. وبالفعل قد تعرض ﷺ لحادث مماثل لحادث لوط عليه السلام؛ فكما أن قوم لوط أرادوا طرده من بينهم كذلك قرر قوم النبي ﷺ طرده من بينهم. ثم إن التهمة الموجهة إليهما كانت واحدة وإن كانت الأسباب مختلفة، وهي: إنهم أناس يتطهرون.. أي أنهم يظنون أنهم أكثر منا طهارة وعفافًا.

ثم نجّى الله تعالى لوطًا عليه السلام وأهله من العذاب إلا امرأته إذ كانت تعارضه وتستنكر تعاليمه، كذلك أنقذ الله نبيه ﷺ وأبا بكر أيضًا. وعليه فكان أبو بكر من أهل النبي ﷺ حتمًا بحسب هذه الآية.

بيد أن هناك فرقًا وهو أن زوجة لوط عليه السلام أصبحت من الذين تخلّفوا وهلكوا، ولكن حيث إن النبي ﷺ أعظم من لوط عليه السلام فلم تتخلف عنه أيّ من نسائه وقت الهجرة بالمعنى الذي أصبحت زوجة لوط من المتخلفين، إذ لم تتخلف عنه أي منهن برغبتها أو بشكل دائم أو بهلاكها بالعذاب؛ بل قد هاجرت سودة وعائشة — رضي الله عنهما - إلى المدينة بعد هجرته ﷺ بأيام قلائل، إذ أعطى النبي ﷺ زيدًا

جمَلين وخمس مئة درهم وبعثه إلى مكة ليأتي ببناته وأزواجه ﷺ فجاء بفاطمة وسودة؛ أما عائشة فهاجرت إلى المدينة مع أخيها عبد الله (الطبقات الكبرى: باب ذكر خروج رسول الله ﷺ وأبي بكر). وهكذا فكل نساء النبي ﷺ تمتعن معه بما خوّله الله تعالى من النعم.

لما بلّغ لوط عليه السلام قومه رسالة الله ونهاهم عن الظلم والفساد والشذوذ الجنسي، لم يرتدعوا و لم يصلحوا حالهم، بل قالوا عن أتباعه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.. أي أنهم ليسوا من أهل الطهارة حقًا ولكنهم يتكبرون علينا بالطعن فيما نفعل، أو أنهم يتظاهرون بالصلاح والعفاف رياءً وليسوا من أهل الصلاح والورع حقًّا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾.. أي أمطرنا عليهم مطرًا مدمرًا بسبب جرائمهم، ومن صدر قرارنا بهلاكه يكون المطر النازل عليه مخيفًا ومدمرًا جدًا.

الواقع أنهم أُمطروا بالحجارة نتيجة زلزال عنيف، حيث انشقت الأرض وتطايرت ملايين الأطنان من التراب ثم سقطت عليهم.

أما النبي ﷺ فقد أنــزل الله على أعدائه عذاب المطر الظاهري أيضًا، وذلك يوم بدر. كما نــزل عليهم مطر الرمال والحجارة أيضًا حين أخذ النبي ﷺ حفنة من الحصباء ورماها تجاههم بعد الدعاء، فأصبحت هذه الرمية بمثابة إشارة إلى قوى السماء، حيث هبّت بعد ذلك عاصفة من وراء المسلمين فأثارت عاصفة من الرمال والحجارة وأعمت عيون الكفار، وصدّت سهامهم التي كانوا يطلقونها على المسلمين، فلم تُصبهم بأذى بل سقطت في الطريق. وهكذا نــزل على الكافرين ذلك العذاب الذي كان لزامًا أن ينــزل بهم لتتم المشابهة بين النبي ﷺ ولوط عليه السلام وليتحقق به دعاءٌ لأبي جهل قال فيه: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(الأنفال:٣٣). ثم أخذهم الله تعالى بعذاب كان أشد إيلامًا إذ أهلك خيرة قادتهم في وقعة بدر نفسها، فقضى بذلك على عزتهم وجاههم، وجلّى صدق نبيه ﷺ كالشمس في كبد السماء.